تاريخ جوهر الصقلي

قائد المعز لدين الله الفاطمي

تأليف

الدكتور علي ابراهيم حسن

المفتش الأول للمواد الاجتماعية

بوزارة التربية والتعليم



ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

هذا الكتاب نال به المؤلف درجة ماجستير فى التاريخ الإسلامى من جامعة القاهرة

الطبعة الثانية ١٩٦٣

مطبعة السعادة
١٢ ش الجلاوى . القاهرة
ت : ٩٠٧٣٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

أتاح لى قيامي بتدريس مواد التاريخ الإسلامي العام وتاريخ مصر فيما قبل الفتح الفاطمي وفى العصر الفاطمي وفى عصر الأيوبيين والمماليك كأستاذ للتاريخ الإسلامي فى كلية دار العلوم وكليتي الآداب بجامعة القاهرة وبجامعة بغداد — إلى متابعة تحليل شخصية « جوهر الصقلى »

تناولت حياة جوهر الصقلى ، قائد المعز لدين الله الفاطمي ، بالبحث ، لما لذلك القائد العظيم والفاتح الكبير من الأثر فى تاريخ العالم الإسلامي عامة وتاريخ مصر الإسلامية خاصة ، لاسيما وأنه هو الذى فتح بلاد المغرب وفتح مصر وأقام سلطان الفاطميين فى الشرق .

وإن عصر جوهر الصقلى لمن أهم عصور التاريخ المصرى ، لذلك كان جوهر لا يقل أهمية عن عمرو بن العاص ، وأحمد بن طولون ، ومحمد بن طغج الإخشيد ، وصلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس ، وغيرهم من مشهورى أمراء مصر وحكامها .

لذلك استقصيت كل ما يتعلق بتاريخ هذا القائد وآثاره ، واستطعت أن أوضح الكثير من المسائل الغامضة فى هذه الناحية من نواحى تاريخ مصر الإسلامية .

وقد عنيت بدرس كل ما كتب عن نشأة ذلك القائد وموطنه الأصلى ، والدور السياسى الذى قام به فى تاريخ مصر : من ذلك تأسيس مدينة القاهرة التى لا تزال حاضرة الديار المصرية إلى اليوم ، وبناء الجامع الأزهر ، ونشر المذهب الفاطمي ، وفتح مصر والشام وفلسطين والحجاز ، وتوطيد دعائم سلطان الفاطميين فيها ، وصد غارات القرامطة عن مصر ، وهزيمة افتكين ومن حالفه من القرامطة .

المؤلف

محتويات الكتاب

الباب الثالث

سياسة جوهر فى مصر

الباب الخامس

حياة جوهر فى مصر بعد قدوم المعز إليها

الباب السادس

دولة الفاطميين التى أقامها جوهر الصقلى فى مصر

الصور والخرائط

الباب الأول

جوهر منذ ولادته إلى أن ولى فتح مصر

جوهر قبل اتصاله بالمعز:

إن للبيئة التى ينشأ فيها الشخص ويترعرع تأثيراً كبيراً فى أعماله، وبدراستها يسهل الحكم على حياة الرجل بما يحيط به من المؤثرات، لذلك يجب أن نتكلم على جزيرة «صقلية»، موطن جوهر الأصلى.

ولد جوهر بجزيرة صقلية، إحدى جزر الدولة الرومانية؛ فهو باعتبار مولده رومى الأصل[1]؛ وكان العرب يطلقون على أهالى الدولة الرومانية (الشرقية والغربية) اسم الروم.

وقد ظلت صقلية[2]، موطن جوهر الأصلى، تحت حكم الرومان حتى

---

(١) ذكر المقريزى (الخطط ج ١ ص ٣٧٧) أن جوهراً «مملوك رومى رباه المعز لدين الله». كذلك أطلق عليه ستانلى لين بول(The Story of Cairo p 117) اسم «العبد الرومى»

(٢) صقلية: بثلاث كسرات وتشديد اللام، والياء أيضاً مشددة. والبعض يقولها بالسين. وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام. وهى من جزائر البحر الأبيض المتوسط، بينها وبين افريقية مائة وأربعون ميلا. وهى جزيرة خصبة كثيرة البلدان والقرى، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً. وبها جبل النار الذى يزعم الروم أن كثيراً من الحكماء الأولين كانوا يدخلون إلى الجزيرة لمشاهدة عجائبه واجتماع النار والثلج فيه، وقيل إنه كان فى هذا الجبل معدن الذهب، وقد سماه الروم جبل الذهب. وحاضرة هذه الجزيرة مدينة بلو، ومن أكبر مدنها الخالصة. ياقوت معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٣ — ٣٧٦.

فتحها الأغالبة[1] سنة ٢١٢ هـ (سنة ٨٢٧ م) على يد أسد بن الفرات قاضى القيروان ، وذلك فى عهد المأمون . ويحدثنا ياقوت[2] أن أسداً فتح هذه الجزيرة على رأس تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل . وكانت ولاية القضاة إمرة الجند مألوفة عند المسلمين ؛ فطالما قادوا الجيوش وفتحوا كثيراً من البلاد ، وخرجوا فى الغزوات مابين شاتية وصائفة إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت فى عداء مستمر مع المسلمين بحكم الجوار فقد ولى القاضى يحيى بن أكثم قيادة الجند فى عهد المأمون لقتال البيزنطيين .

وقد أسلم أكثر سكان جزيرة صقلية على أثر هذا الفتح ، وبنوا بها كثيراً من المساجد ودور العلم . وكان للرحالة من المسلمين معرفة تامة بجزيرة صقلية مهد جوهر . فقد ذكر لنا ياقوت أن أبا الحسين بن يحيى بن الفقيه وصفها فى كتابه « تاريخ صقلية » وصفا دقيقا مسهبا ، فتكلم عن جبالها وبراكينها ومضايقها ومعادنها وثمارها وفواكهها ، وما بها من الأبنية والحصون والآثار . كذلك وصفها ابن حوقل الذى رآها سنة ٣٦٢ هـ ، وهى السنة التى وصل فيها المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة واتخذها حاضرة لدولته ، وكتب عنها كتابا سماه « محاسن أهل صقلية » وذكر من بين مدنها الكبيرة بلرم والخالصة ، كما قال أن عدد ماشيده المسلمون فيها من المساجد يزيد على الثلثمائة . ومن ذلك نقف على مدى انتشار الإسلام فى هذه البلاد وتمكنه من نفوس أهلها . ووصف هذه الجزيرة أيضاً الشريف الإدريسى المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (سنة ١٢٥١ م) ، والذى شاهد كثيراً من ممالك العالم

---

(١) أسس هذه الدولة ابراهيم بن الأغلب الذى أقطعه هارون الرشيد شمال افريقية فى سنة ١٨٤ هـ (سنة ٨٠٠ م) ، فوليها هو وأولاده من بعده الى سنة ٢٩٦ هـ ٩٠٩ م) .

Stanley Lane—Poole: The Muhammadan Dynasties p. 36

(٢) معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٧٤

المختلفة.[١] وقد أهدى لروجر الثانى ملك صقلية كرة أرضية من الفضة رسمت عليها البحار والقارات.

وقد صادفت اللغة العربية فى تلك البلاد جواً صالحاً، كما وجد الدين الإسلامى مرعى خصيباً بين أهل صقلية. فقد انتشرت هذه اللغة فى تلك الجزيرة وأصبحت لغة التخاطب فيها، واللغة الرسمية للبلاد، وترجمت فى هذه الجزيرة أهم مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية، كما انتشر الشعر العربى بين أهلها، وبخاصة المعلقات السبع[٢] وغيرها من القصائد العربية. وكان لما أخذه رودجر النرماندى عن العرب من المثل العليا للفروسية أثر كبير فى ارتفاع شأن أسرته. أضف إلى ذلك ما أخذه عنهم من النظام الإدارى واستعانته بالموظفين المسلمين فى إدارة شئون دولته[٣].

ويعتبر العصر الذى سادت فيه الثقافة العربية فى هذه الجزيرة هو العصر الذهبى لها، ذلك العصر الذى بذت فيه صقلية جميع ممالك أوربا من حيث الحضارة والمدنية. وكان من أثر انتشار اللغة العربية أن أصبحت لغة النقوش التاريخية فى هذه البلاد، حتى كان الملوك من النرمانديين يجيدون التكلم بها. وقد أفسحت اللغات الإغريقية والعربية والفرنسية الطريق إلى اللهجة الإيطالية

---

(١) كتاب نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان (رومة سنة ١٥٩٢)

ذكر المقريزى أن جميع البلاد التى ذكرها الإدريسى كانت مكتوبة على ستور حريرية بالقصر الفاطمى فى القاهرة. الخطط جـ ١ ص ٤١٥

(٢) كان عند العرب فى الجاهلية أسواق للأدب يتناشد فيها الشعراء القصائد العصماء أمام المحكمين من شعراء العرب. فكانت القصائد التى يحكم لها بالسبق تكتب بماء الذهب وتعلق على جدران الكعبة تكريماً لأصحابها وإشادة بذكرهم بين قبائل العرب المختلفة، وقد بلغ مجموع هذه القصائد حتى ظهور الإسلام سبعاً.

(٣) Encyclopaedia of Islam, Sicily, S. V.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الفتح النرماندى قد عبد الطريق للمهاجرين من إيطاليا ، وبخاصة للنرمانديين[١] .

وكان من الطبيعى أن تؤثر هذه البيئة الإسلامية فى نشأة جوهر ، فيشب على الإسلام متمسكا بآدابه ، مثقفاً تثقيفاً عالياً بفضل انتشار اللغتين العربية واللاتينية وغيرهما من اللغات السائدة فى هذه البلاد ، ويأخذ بنصيب كبير من الحضارتين العربية والرومانية . وكان لتلك الثقافة أكبر الأثر فيما عرف به جوهر من حسن السياسة والمهارة الحربية . ولم تلبث هذه الحضارة أن انتشرت بين الفاطميين ، فقد كان الخليفة المعز مثقفاً يجيد عدة لغات : منها الإغريقية والصقلية ، كما كان ذا ولع بالعلوم ودراية بالآداب ، معروفاً برجاحة العقل وحسن التدبير[٢] . ومن ثم اختار رجالات دولته من بين المغاربة وأهل صقلية ممن اشتهروا بالحزم والكفاية والثقافة العالية .

* * *

لم يحفظ لنا التاريخ لسوء الحظ شيئاً ذا غناء عن بيت جوهر وعن أبيه وأمه وأخوته وغيرهم من ذوى قرباه ، ولا عن كيفية اتصاله بالمعز ، وإنما هى أخبار مبعثرة لاتمثل لنا حياة هذه الأسرة التى نشأ بها جوهر تمثيلا صحيحاً واضحاً .

وليس لدينا من المصادر مايسمح لنا بالوقوف على السنة التى ولد فيها جوهر بالضبط ، اللهم إلا ما ذكره ابن زولاق من أنه سأل الشريف أبا جعفر مسلم عند ما عاد إلى الفسطاط ، بعد مقابلته له ومفاوضته إياه بشأن

---

(١) Ecnyclopaedia Britannica, Encyclopaedia of Islam Sicily, S · V.

(٢) Stanley Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 116

الصلح سنة ٣٥٨ هـ . عن سن جوهر فقال : « نيف وخمسون سنة »[١] . وعلى ذلك يكون جوهر قد ولد بين سنتى ٣٠٥ هـ ، ٣٠٧ هـ . غير أن هذا يتعارض مع ماذكره المقريزى من أن جوهرا قد توفى سنة ٣٨١ هـ بعد أن نيف على الثمانين . ولو أخذنا بهذه الرواية لكانت ولادة جوهر بين سنتى ٢٩٨ هـ و ٣٠٠[٢]. ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الثانية لأنها قد وردت على لسان جوهر نفسه . فقد ذكر المقريزى أن جوهراً قال لابن عمار فى سنة ٣٨١ هـ، وهى السنة التى مات فيها جوهر ، لقد « نيفت على الثمانين »[٣]. والنيف - على ما ذكره صاحب المصباح - هو من واحد إلى ثلاثة . بينما لم تعد الرواية الثانية أن تكون تقديراً تقريبيا لسن جوهر من أبى جعفر مسلم .

ولم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عما إذا كان جوهر قد ولد مسلما أو أسلم بعد ولادته . والذى يغلب على الظن أنه ولد مسلما . فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، وذلك قبل أن يتصل جوهر بالمعز بأكثر من قرن . أضف إلى ذلك أن أباه كان يدعى عبد الله ، وهو اسم من الأسماء الشائعة بين المسلمين . وليس بعيداً أن يكون عبد الله هذا قد بادر إلى الإسلام الذى كان منتشراً فى هذه الجزيرة منذ زمن بعيد ، وأن جوهراً قد شب على دين أبيه أما أجداده فلم ينقل لنا التاريخ شيئا عن إسلامهم ؛ وكل ماذكروه عن سلسلة نسب جوهر أنه أبو الحسين جوهر بن عبد الله . ولعل سكوت المؤرخين عن استقصاء ذلك النسب يرجع إلى أنهم لم يعثروا على شىء فى ذلك . فقد كان جوهر مولى من الموالى . وقلما يهتدى المؤرخون إلى الوقوف على صحة نسب هؤلاء الموالى ، وذلك لعدم عناية الموالى أنفسهم بتدوين أنسابهم . أضف إلى ذلك أن هذا النسب كثيراً ما يكون عرضة للغموض والإبهام .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ص ٧١

(٢) الخطط ج ١ ص ٣٨٠

(٣) أحد قواد المغاربة

وكان لجوهر ولد يدعى الحسين ويكنى بأبي عبدالله . وكان ذا مواهب فذة ومقدرة حربية فائقة كما كان أبوه . وكان يلقب في حياة أبيه « بالقائد ابن القائد »(١) .

جوهر منذ اتصاله بالمعز إلى أن فتح مصر :

شب جوهر في حجر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالي المعز . ويحدثنا المقريزي(٢) أن المعز قد اختص جوهراً من بين مواليه وكناه بأبي الحسين . وقد قربه الخليفة الفاطمي لما توسمه فيه من الاخلاص للدين والمواهب الفذة والثقافة الواسعة التي أخذ منها بأوفى نصيب .

ويطلق المؤرخون على جوهر « جوهرا الصقلي » نسبة إلى موطنه الأصلي « صقلية » ويظهر لنا أن كثيرين من أهل هذه الجزيرة قد انضووا تحت لواء الفاطميين وحاربوا في صفوفهم بعد أن تأسست دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، بدليل ورود لفظ « الصقالبة » في كثير من المصادر التي يعتمد عليها في تاريخ الفاطميين . وقد شاع اطلاق لفظ الصقالبة على سكان جزيرة صقلية ؛ وهو خطأ واضح ، لأن الصقالبة من الجنس السلافي ، ومنه الروس والصرب والبلغار وغيرهم من أهالي البلاد المحيطة بالبحر الأسود . وبذلك كانت التسمية الصحيحة لأهل جزيرة صقلية هي « الصقليين » لا « الصقالبة » .

ظل جوهر يتدرج في سلك المناصب ببلاد المغرب حتى اتخذه المعز في سنة ٣٤١ هـ (٩٢٣ م) كاتباً له . ولقب منذ ذلك الحين « بجوهر الكاتب » .

---

(١) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ١٤

(٢) الخطط جـ ١ ص ١٥٢

ولابد أن يكون المعز قد خبر جوهرا وعرف ما امتاز به من الصفات والمزايا قبل أن يلى الخلافة بزمن طويل ، إذ يبعد كل البعد أن يظفر جوهر بهذه السرعة إلى هذا المنصب الخطير ، وأن يتخذه المعز كاتباً له سنة ٣٤١ هـ وهى السنة التى ولى فيها الخلافة . فقد كانت الكتابة إحدى المناصب العالية التى كان الخلفاء لايسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور ، كما كانت الخطـــوة الأولى إلى الوزارة إذا ماحاز صاحبها رضاء الخليفة .

وكان جوهر عند حسن ظن الخليفة به ، فرقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ هـ . ولا غرو فقد كان جوهر كاتباً بليغاً ، كما كان عفا جم الأدب فى كتابته . يتبين ذلك فى عهد الصلح الذى كتبه للمصريين ، ذلك العهد الذى سنأتى على ذكره فى الباب التالى . وقد كان لهذه الصفات أبعد الأثر فى تهدئة خواطر المصريين وتأليف قلوبهم عقب الفتح الفاطمى .

ويحدثنا ابن خلكان[1] أن المعز بعث جوهراً (صفر سنة ٣٤٧ هـ) ، لفتح ما بقى من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة ، ومن بينهم زيرى بن مناد الصنهاجى الذى استخلف المعز ابنه بلكين على بلاد المغرب عند ما رحل إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ . سار جوهر إلى تاهرت[2] فاستولى عليها ، ثم استأنف السير إلى مدينة فاس فناجز

---

(١) جـ ٢ ص ١٠٢

(٢) تاهرت (أو تيهرت) اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت رأس الأباضية وأمامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

أهلها مدة ، ثم تركها لاستعصائها عليه . ثم يمم سجلماسة[١] ، وكان قد قام بها رجل تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأسره . ثم أمعن جوهر السير فى بلاد المغرب الأقصى ، يفتتح مدينة تلو مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى[٢] . وقد أراد أن يبرهن المعز إلى أى حد وصلت جيوشه فى فتوحها ، فأمر أن يصاد من سمك المحيط . ثم وضع هذا السمك فى قلال من الماء وبعثه إلى المعز « وأعلمه أنه قد استولى على مامر به من المدائن والأمم وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها »[٣] .

ولما لم يتمكن جوهر من الاستيلاء على بلاد المغرب كلها ، لاستعصاء فتح فاس عليه ، عاد إلى هذه المدينة وعالج فتحها من جديد . وقد تم له ما أراد ، ففتحها عنوة واستولى عليها ، وقبض على صاحبها وعلى صاحب سجلماسة ، ثم وضعهما فى قفصين حملهما مع هدية إلى الخليفة المعز وهو فى المهدية .

وهكذا تمكن جوهر من توطيد الأمن فى جميع أرجاء بلاد المغرب فى أقل من سنة ، وإتمام الفتوحات التى بدأها أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩١ هـ (سنة ٨٩٦ م) ، فأخضع لسلطان المعز أهالى هذه البلاد ودانوا له بالطاعة والولاء . فلا عجب إذا عظم شأن جوهر عند المعز ، فاختاره لقيادة الحملة التى أرسلها لفتح مصر ، ولقبه « بالقائد » .

---

(١) سجلماسة : مدينة بالمغرب الأقصى ، يجرى فيها نهران أصلهما واحد ، فاذا قربا من المدينة تشعبا الى نهرين فيسلكانها شرقا وغربا . وتقع فى سهل أرض سبخة حول أرباض كثيرة ، وتبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخاً . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ وفى سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة ملكهم (البكرى ص ١٤٨ — ١٤٩)

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٥٢

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٨

وقد ذكر ابن خلكان[1] أن جوهراً مرض وهو فى بلاد المغرب مرضاً شديداً أشرف معه على الموت . فحزن المعز وعاده بنفسه فى بيته،وهو شرف لاينالة إلا المقربون . وكأن نفس المعز كانت تحدثه بأن مصر لن تفتح إلا على يد جوهر . فلما عاد من زيارته قال : « هذا لايموت ؛ وستفتح مصر على يديه » . وقد تحققت نبوءة المعز ؛ فشفى جوهر من مرضه. وسرعان ما أعدت معدات الحملة وخرج المعز لوداعه ، وهو ما سنفصله بعد .

---

(١) جـ ١ ص ١١٩ .

Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 99

الباب الثاني

استيلاء جوهر على مصر

حالة مصر قبيل الفتح الفاطمي:

كانت مصر قبيل الفتح الفاطمى تحت حكم الإخشيديين منذ سنة ٣٢٣ هـ ، وظلت على ذلك إلى سنة ٣٥٨ هـ حيث فتحها جـــوهر قائد جيوش المعز لدين الله .

وقد أسس محمد بن طغج الإخشيد هذه الأسرة على أثر ولاية هذه البلاد للمرة الثانية سنة ٣٢٣ هـ . وكانت مصر فى عهده فى طمأنينة وهدوء . وكان الأمن مستتباً ، والرخاء شاملا ، والبلاد لاتزال قوية بجندها الذين كانت تدفع لهم رواتبهم بانتظام . أضف إلى ذلك قوة العباسيين الذين كانت مصر تابعة لهم تبعية اسمية . لذلك استطاعت مصر أن تقف فى وجه الفاطميين الذين جعلوا الاستيلاء عليها نصب أعينهم منذ خلافة عبيد الله المهدى . وقد زاد كل ذلك فى قوة الأخشيد حتى تمكن من صد الجيوش الفاطمية التى أغارت على هذه البلاد فى عهد القائم بن المهدى سنة ٣٢٤ هـ .

وقد كانت الصلة بين الإخشيد والخليفة العباسى على خير ما يكون من الصفاء وحسن التفاهم[1] . وظلت أواصر هذه الصلة قوية متينة إلى أن جاء ابن رائق لصرف الإخشيد عن مصر بأمر الخليفة . لهذا لانعجب إذا ثارت ثائرة الإخشيد ، فكتب إلى نائبه فى بغداد لاستطلاع رأى الخليفة الذى لم

---

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢٧١

اتساع الدولة الفاطمية

...... حدود الدولة في أقصى اتساعها

فتح الفاطميين لمصر

يحفل به ولم يرد عليه بشيء . وكان من أثر ذلك أن أمر الإخشيد بإلغاء الخطبة للخليفة العباسى وإحلال اسم الخليفة القائم الفاطمى محله . وهذا العمل — كما سنرى — يعتبر خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين .

على أن الدولة العباسية لم تلبث أن ضعفت فى أواخر أيام الإخشيد إلى حد كبير . وذلك على أثر تنازع السلطة فى بغداد بين توزون والبريدى اللذين كانا من قواد الأتراك . ومن ثم لم يجد الخليفة بداً من الاستنجاد بالإخشيد ، أقوى ولاته فى ذلك العصر . وسار الخليفة إلى الشام ، فلقيه الإخشيد فى مدينة الرقة[١] وعرض عليه البقاء معه فى الشام أو الذهاب إلى مصر . ودارت المفاوضات بين الإخشيد وتوزون الذى تعهد بحماية الخليفة ، فعاد الخليفة إلى بغداد ، ورجع الإخشيد إلى مصر . أما توزون فإنه لم يرع لعهده حرمة ، فقد سمل عين الخليفة وحبسه ثم قتله[٢] . وجاء بعد ذلك بنو بويه لنصرة الخليفة العباسى الذى لم يلبث أن أصبح ألعوبة فى أيديهم .

مات الإخشيد فى فلسطين فى شهر ذى القعدة سنة ٣٣٤ هـ ودفن فى بيت المقدس ، فخلفه ابنه الأكبر أبو القاسم أنوجور[٣] وهو فى الخامسة عشرة من عمره . وقد قام بتدبير أمره أبو المسك كافور .

كان كافور عبداً خصياً مملوكا لأحد أهالى مصر ، فاشتراه منه محمد بن طغج مؤسس الدولة الإخشيدية فيما بعد ، وكان إذ ذاك من كبار القواد . وقد ذكر السيوطى[٤] أن الإخشيد اشترى كافوراً بثمانية عشر ديناراً ، وذكر

---

(١) بلدة واقعة بين العراق والشام .

(٢) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٣٠٧

(٣) أنجور أو أنوجور معناها بالعربية محمود على ما ذكره ابن خلكان (١ ص ٥٤٥) والسيوطى (جـ٢ ص ٣٧٣)

(٤) حسن المحاضرة (جـ ٢ ص ٣٧٣) ، وابن خلكان (جـ١ ص ٤٣١) وأبو المحاسن (جـ٢ ص ٣١٥)

المقريزى[١] أنه أرسل بهدية لمحمد بن طغج ، فتوسم فيه الذكاء وأبقاه عنده ورد الهدية إلى صاحبها .

ولما آلت ولاية مصر إلى الإخشيد ترقى كافور فى بلاطه ، فاختصه الإخشيد من بين عبيده ومنحه ثقته حتى جعله أتابك[٢] ولديه أبى القاسم أنوجور وأبى الحسن على . ولا غرو فقد كان الإخشيد يرى فى كافور النجابة والهمة ، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه قال : والله لا ورث دولة ابن طغج إلا هذا العبد .

ولما توفى الإخشيد وخلفه ابنه ابو القاسم انوجور قبض كافور على زمام الأمور فى كافة البلاد الخاضعة لحكم الإخشيديين : وهى مصر والشام والحجاز وقد استهل كافور عهده بالقضاء على الثورة التى قام بها المصريون فى وجهه . أضف إلى ذلك ما اصابه من الفوز فى طرد أبى الحسن على الملقب بسيف الدولة الحمدانى من دمشق ، والحيلولة بينه وبين المسير إلى مصر . وكان من أثر هذا الانتصار الذى دلت عليه هذه الغنائم التى استولى عليها المصريون فى هذه الحرب ، أن عظم شأن كافور ، فخاطبه علية القوم « بالأستاذ » ، ودعى له على المنابر فى مصر والشام والحجاز[٣] باسم أبى المسك[٤] كافور ، تلك التسمية التى كناه بها الخليفة العباسى . وقد اكتسب محبة القواد وكبار رجال الدولة بما أغدقه عليهم من العطايا والهبات ، كما انبسطت يده فى كافة شئون البلاد[٥] .

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٦

(٢) أتا معناه بالتركية الأب وبك معناه الأمير ، أى أبو الأمير أو مربى الأمير

(٣) ذكر المقريزى (الخطط : ج ٢ ص ٢٦) أن أهالى الفسطاط والرملة وطبريه لم يدعوا للإخشيد قبل ٣٤٠ هـ .

(٤) أطلقت هذه الكنية عليه من قبيل التمليح والمشاكلة ، لأن المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك . وكانت الدعابة فى إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون .

(٥) Lane—Poole : The Story of Cairo p. 101.

وكان من أثر ازدياد نفوذ كافور أن ظهرت الوحشة بينه وبين أنوجور ، وعمل كل منهما على الإيقاع بالآخر . وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية والكافورية . ومات أنوجور فى ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ ، ولم يتجاوز التاسعة والعشرين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافورا قد دبر أمر وفاته بالسم . وقد أقام كافور أخاه أبا الحسن على بن الإخشيد وهو فى الثالثة والعشرين . ولم يكن لهذا الأمير الجديد مع كافور شىء . فقد استبد بالأمر دونه وعين له — كما عين لأخيه من قبله — أربعمائة ألف دينار فى كل سنة[1] ومنع الناس من الدخول إليه . ويحدثنا المقريزى أن أبا الحسن اعتل بعلة أخيه ، وأنه مات كمدا لحرمانه من سلطته الشرعية (المحرم سنة ٣٥٥ هـ). وقد حال كافور بعد وفاة أبى الحسن دون تعيين ابنه احمد ، بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ، وبقيت مصر بغير أمير عدة أيام . وفى المحرم من سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة المطيع العباسى بتقليده ولاية مصر والبلاد التى تحت سلطانها . فلم يغير لقبه الأستاذ ، ودعى له بعد الخليفة على منابر مصر والشام والحجاز ، وكان يدعى له قبل ولايته بعد الخليفة والوالى[2] .

ولم يكد كافور يستولى على ولاية مصر سنة ٣٥٥ هـ حتى ارسل المعز الفاطمى جيشاً لغزو هذه البلاد . فلما وصلت الجنود الفاطمية إلى الواحات ، جهز كافور جيشاً طردهم وقتل منهم عددا كبيرا. على أن كافورا قد أحسن استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه فى بلاطه من قبل المعز يدعونه إلى طاعته ،حتى كان من أثر ذلك أن مال إلى المذهب الفاطمى الكثيرون من الكتاب والجنود الإخشيدية والكافورية .

---

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٥

(٢) المقريزى : ج ص ٢٦ — ٢٧

من ذلك نرى أن فكرة تحويل السلطة من العباسيين إلى الفاطميين كانت قد اختمرت فى نفوس المصريين . ولا شك فى أن الحالة السيئة التى سادت هذه البلاد فى السنين الأخيرة من حكم كافور قد ساعدت على زوال سلطان الإخشيديين عن هذه البلاد . فقد انتاب مصر البؤس والغلاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد تلك المحن أثراً انخفاض النيل الذى بدأ فى سنة ٣٥١ هـ ، وما تبعه من انتشار القحط وتفشى الوباء . فاشتد الغلاء وندر القمح ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى وعن مواراتهم ، حتى قيل إنه كان يلقى بجثث الموتى فى النيل لكثرتها[١] . وقد ذكر ابن خلكان أن عدد الموتى بلغ ٦٠٠,٠٠٠ . يضاف إلى ذلك عجز كافور عن صد القرامطة الذين اغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ (سنة ٩٦٣ م) ونهبوا حجاج مصر فى طريقهم إلى مكة (سنة ٣٥٥ هـ) . وعدم استطاعته الدفاع عن مصر التى أغار عليها النوبيون حتى وصل ملكهم إلى اخميم ، وما كان من اضطراب الحكومة وعجز كافور عن دفع رواتب حرسه وغلمانه[٢] فتنكروا له وثاروا عليه[٣] .

توفى كافور فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وهو فى الستين من عمره ، بعد أن تولى أمر مصر والشام والحجاز زهاء إحدى وعشرين سنة ، ودفن فى دمشق[٤] . وقد ترك مصر فى حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب . وكان المذهب الفاطمى فى هذه البلاد قد بدأ ينمو ويطرد بين عدد كبير من المصريين . كل ذلك قد مهد الطريق أمام جوهر لفتح مصر وتحويلها من سلطان الإخشيديين إلى سلطان الفاطميين .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧

(٢) ذكر المقريزى أن عدد هؤلاء الغلمان بلغ الفا وسبعمائة

(٣) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte P. 31

(٤) Lane-Poole : The story of Cairo p. 103

وكانت الدولة العباسية فى ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال . فقــد سادها الاضطراب والفوضى ، وانتقضت أطرافها ، واقتطعت منها دويلاتها ، وثار عليها ولاتها ، وكثرت الاغارة عليها من أعدائها ، وغدا الخليفة العباسى أشبه شيء بألعوبة فى أيدى بنى بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الغالين الذين استنجد بهم الخليفة لمعاونته وتخليصه من ظلم الأمراء . ولا غرو فإن سلطة الخليفة العباسى قد اضمحلت فى ذلك الوقت ولم تعد تمثل إلا فى الخطبة والسكة ، وذلك لاحتفاظ الأمراء بسلطتهم السياسية لدى الأهلين الذين كانوا يقدسون شخص الخليفة ويولونه احترامهم وتبجيلهم . وهذا ماحدا بسلاطين بنى بويه والسلاجقة إلى إظهار الخلفاء أمام الناس بمظهر القوة والقداسة الدينية وأن نفوذهم مستمد من الخليفة [١].

بذلك لم يعد للخليفة من أمر تعيين الولاة شيء . فلما مات كافور اجتمع رجال البلاط فى مصر وولوا أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد عرش مصر ، وكان فى الحادية عشرة من العمر [٢] واتفق أن جاء إلى مصر أبو محمد الحسن ابن عبيد الله أخى الإخشيد فارا من وجه القرامطة ، فأمره المصريون على الجيش . فاستبد بالأمر وقبض على الوزير جعفر بن الفرات واستولى على أمواله ثم عاد إلى الشام . [٣] وقد ظلت هذه البلاد بعد رحيل الحسن ابن عبيدالله إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، نحوا من خمسة أشهر تحت إدارة ابن الفرات ، وصلت فى أثنائها إلى حالة من الفوضى عجز معها هذا الوزير عن إقرار الأمن فى نصابه وتخفيف ما حل بالأهلين من المصائب والويلات [٤] .

Gibbon: Decline And Fall of the Roman Empire,VI·p.p.54—55(١)

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٥٧

(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٥٥ و ٦٥

Lane—Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 89—90

من هذا كله نرى أن حالة الضعف والبؤس التى وصلت إليها مصر ، وعجز العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها قد مهدا السبيل أمام المعز الفاطمى لفتح مصر ، ذلك الأمر الذى تم على يد جوهر القائد وهو ماسنبينه فى الفصل التالى .

فتح مصر :

عنى الفاطميون عناية خاصة بغزو مصر ، لأن ذلك يزيد فى رقعة أملاكهم ولأن استيلاؤهم على هذه البلاد معناه امتداد نفوذهم على البلاد التى كانت خاضعة لسلطان الأخشيديين وهى الشام والحجاز . ولا غرو فان موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب ، ووفرة ثروتها قد ساعدا على تحقيق أغراض الفاطميين من بث عقائد مذهبهم ، ونشر سلطانهم على البلاد الإسلامية فى الشرق . لهذا لا نعجب إذا رأينا الخلفاء الفاطميين منذ خلافة المهدى يدأبون على امتلاك هذه البلاد فيرسلون الحملات البرية والبحرية لفتحها . فقد أرسل عبيد الله المهدى (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ) أول الخلفاء الفاطميين ثلاث حملات لغزو مصر : الأولى فى سنة ٣٠١ هـ ، والثانية فى سنة ٣٠٧ ، ولم تنته إلا فى سنة ٣٠٩ هـ فى حين ابتدأت الحملة الثالثة فى سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدى سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث فى الاستيلاء على مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، لأن مصر كانت فى ذلك الوقت من القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الأعداء .

وقد انقطعت حملات الفاطميين على مصر فى المدة الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ) . لأن العباسيين كانوا لا يزالون من القوة بحيث كان فى استطاعتهم الدفاع عن مصر ورد الفاطميين عنها ، كما أن الثورات التى قام بها الخوارج فى بلاد المغرب قد حالت دون تحقيق الغرض الذى كان يرمى إليه الفاطميون وهو فتح مصر .

وأعظم هذه الثورات خطراً وأعظمها أثر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، الذي قام بفتنة اشتد وقعها على الدولة الفاطمية فأفقدتها زهرة رجالها وجعلت بيت مالها خلواً من الصفراء والبيضاء .

وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء المعز رابع الخلفاء الفاطميين (٣٤١ - ٣٦٥ هـ و ٩٥٢ — و٩٧٥ م) فأرسل جيشاً لغزو هذه البلاد ، فوصل إلى الواحات . ولكن كافوراً الإخشيدي صده وحال دون تقدمه .

على أن ذلك لم يصرف المعز عن تنفيذ ماعزم عليه من فتح هذه البلاد . وقد ساعده على ذلك استتباب الأمن فى كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد ثورة أبي يزيد ، ثم قيام الاضطرابات وانتشار الفوضى فى مصر على أثر وفاة كافور ، وضعف الخلافة العباسية وانشغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها ، أضف إلى ذلك عطف المتشيعين بمصر على الدعوة الفاطمية حتى راسلوا المعز يطلبون إليه إرسال جيش لغزو هذه البلاد .

وقد لعب يعقوب بن كلس(١) دوراً هاماً فى توجيه نظر المعز إلى حالة الضعف التى سادت مصر على أثر وفاة كافور .

---

(١) كان يعقوب يهودياً ، ولد فى بغداد وصحب أباه وهو فى صباه إلى الشام . ثم جاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور بعد أن أصبحت السلطة فى يده فى عهد أنوجور وأبى الحسن على ابنى الإخشيد فأحله كافور من نفسه محل العطف والرعاية لما آنسه فيه من الهمة والنشاط والأمانة ، فعينه فى ديوانه الخاص . ولم تزل حظوته تزداد عنده حتى جعله على خزائن الدولة ، وقد أسلم فى شهر شعبان سنة ٣٥٦ هـ فزادت حظوته عند كافور واستثار بذلك حسد الوزير جعفر بن الفرات ، فحبسه ابن الفرات بعد وفاة كافور ، ولم يطلقه إلا بعد أن تدخل بعض رجالات الدولة فى الأمر وبعد أن بذل له ابن كلس الأموال . على أن ابن كلس لم يأمن على نفسه البقاء مع هذا الوزير . فسار خفية إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالمعز ودله على وجوه ضعف مصر وحثه على النهوض بغزوها وضمها إلى أملاكه . وقد ظل ابن كلس فى بلاد المغرب حتى عاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ مع المعز .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق ببلاد المغرب منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م). فقد أمر المعز بانشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة، وجمع الأموال للقيام بنفقات هذه الحرب.

ولا غرو فقد كان المعز شديد الاهتمام بفتح هذه البلاد ومد نفوذه إلى الشرق. فلم يأل جهداً فى إعداد جيش كثيف وتزويده بالعدد، حتى قيل إن عدد هذا الجيش كان يزيد على مائة ألف مقاتل من شجعان كتامة (من قبائل البربر) الذين أغدق عليهم المعز الأرزاق والعطايا حتى بلغت هذه الأموال — على ماذهب إليه المقريزى — أربعة وعشرين مليون دينار.

ويتبين مبلغ اهتمام الفاطميين بفتح مصر وبسط نفوذهم على سورية وبلاد الحجاز من الخطبة التى ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير هذه الحملة إلى مصر وفيها يقول: «ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم. واعلموا أنكم إذا لزمتم ماآمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم.»[1]

وقد رأى المعز فى جوهر الرجل الذى يعتمد عليه فى القيام بأعباء هذه الحملة. ولا غرو فقد كان جوهر من الرجال الأفذاذ الذين برهنوا على شجاعتهم وكفايتهم ومقدرتهم الحربية والإدارية. فقد دانت جميع بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها للمعز، بفضل ما أظهره جوهر من المهارة الحربية، وكان لجوهر أثر فى نشر هذا السلطان. فلما آن أوان فتح مصر جعله المعز على رأس الجيوش التى أعدها لغزوها. ومما يدل على مبلغ ثقة المعز به قوله حين خرج إلى مدينة رقادة[2] لتوديع الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر «والله لو خرج

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ٦٠ – ٦١

(٢) رقادة: تبعد عن القيروان بأربعة أميال، وقد وصفها أبو عبيدالله البكرى =

جوهر وحده لفتح مصر ، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تقهر الدنيا » . ونقف من عبارة المعز على ثلاثة أمور :

الأول : غلو المعز فى مدح قائده ، حتى كان يرى فيه أنه يستطيع فتح مصر وحده مع استعصائها على من سبقه من قواد الفاطميين قبله ومعهم الجيوش الكثيفة . وقد كان لثقة المعز بجوهر الأثر الكبير فى نفسه مما جعله يتفانى فى القتال ليكون عند ظن الخليفة به .

الثانى : وقوف المعز وقوفاً تاماً على أحـــوال مصر وعجزها عن صد الجيوش الفاطمية .

الثالث : أن المعز كان يرمى إلى اتخاذ حاضرة جديدة للفاطميين فى موضع خرائب القطائع التى أسسها أحمد بن طولون أو قريباً منها لينشر منها نفوذه الدينى والسياسى على بلاد الشرق . أضف إلى ذلك أن تسمية هذه الحاضرة بهذا الاسم « القاهرة » كان فى نفس المعز قبل تأسيسها على يد جوهر ، مما

= فى كتابه : « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (ص ٢٧) فقال : إنه يكثر بها البساتين وإنه ليس بإفريقية (بلاد تونس الحالية) أعدل ولا أطيب تربة منها . وقيل أن أحد أولاد الأغالب قد أصابه الأرق فأشار عليه طبيبه بالخروج إلى موضع رقادة . فنام فيه نوماً هادئاً . فسمى هذا الموضع من ذلك الوقت « رقادة » واتخذها إبراهيم بن محمد بن زيادة الله الثانى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ ، ٨٧٢ - ٩٠٢ م) . ومن ثم أخذت فى العمران وكثرت فيها المساجد والقصور والحمامات .

ولم تزل مدينة رقادة مقر ملك بنى الأغالب إلى أن هرب منها زيادة الله فاراً من وجه أبى عبد الله الشيعى ، فسكنها عبيدالله المهدى إلى أن اتخذ مدينة المهدية حاضرة لملكه وانتقل إليها سنة ٣٠٨ هـ ، فأخذت رقادة فى الخراب شيئاً فشيئاً حتى أصبحت أثراً بعد عين .

يمكن أن يدحض ما ذهب إليه المؤرخون من رصد نجم المدينة وظهور « القاهرة » الذى اشتق منه اسم هذه الحاضرة . ولم تقتصر ثقة المعز بجوهر عنده ذا الحد . فقد ذكر لنا ابن خلكان أن الخليفة الفاطمى أمر اولاده ورجالات دولته بالترجل بين يدى جوهر عند ذهابهم لوداعه حين خروجه على رأس الجيوش الفاطمية لفتح مصر ، كما أمر المعز صاحب برقة بالترجل لجوهر عند لقائه وتقبيل يده . وقد كبر ذلك على الوالى وبذل مائة الف دينار على أن يعفى من ذلك ، ولكنه لم يظفر بشيء . وبعد أن قبل جوهر يد الخليفة وحافر فرسه أذن له بالمسير . ولما عاد إلى قصره بعث إلى جوهر كل ما كان عليه من لباس خارجى عدا خاتمه [١].

خرج جوهر من القيروان[٢] فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨ ﻫ (فبراير سنة ٩٦٩ م) ، وكان معه ألف ومائتا صندوق من الأموال على الجمال ، وجند يربو عدده على مائة ألف[٣] ، وخيل يزيد عددها على عدد الجند بكثير . ويحدثنا ابن زولاق أن أبا جعفر مسلم العلوى الذى تم الصلح بين المصريين والفاطميين على يده ، سئل عند رجوعه من توجهه عن مقدار عسكر جوهر فقال : مثل جمع عرفات كثرة وعدة[٤] . وقد وصف ابن هانىء الأندلسى شاعر المعز هذا الجيش فى قصيدة طويلة قال فى مطلعها :

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١١٥ ، المقريزى : الخطط ج ١ ٣٧٨.

(٢) القيروان : أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة رقادة ، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة (البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٧)

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

G. Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧١

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم الحشر أروع
غداة كأن الأفق قد سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع[١]

وصل جوهر إلى برقة ، فأدى له صاحبها التحية على النحو الذى أمره به المعز . ثم استأنف جوهر المسير إلى الإسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة ، فدخلها ومنع جنده من التعرض للأهلين[٢]

من هذا نرى أن جوهراً كان ذا رأى صائب وسياسة حكيمة ، تألف بها قلوب المصريين . فقد حال دون ما عساه ينجم من الشغب وأعمال السلب والنهب التى يرتكبها الجنود الفاتحون . ويرجع الفضل فى ذلك إلى إغداقه العطايا والأرزاق على جنوده مما لم يترك فى نفس جندى منهم حاجة . وهذا يفسر مبلغ السهولة التى تم بها فتح سائر البلاد المصرية .

وقد اضطرب أهل الفسطاط حين علموا باستيلاء جوهر على الاسكندرية . فعقد الوزير جعفر بن الفرات مجلساً من كبار الدولة للنظر فى الحالة التى وصلت إليها البلاد ، فأجمعوا رأيهم على طلب الصلح ، وندبوا الوزير ابن الفرات للتفاوض مع جوهر فى شروط الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وأملاكهم . فأناب الوزير عنه أبا جعفر مسلم ، وهو من الأشراف العلويين ومن ذوى المكانة عند المصريين . فقبل أبو جعفر القيام بهذه المهمة ، واستصحب معه جماعة من ذوى الرأى والنفوذ فى البلاد .[٣]

وكان إسناد رياسة هذا الوفد إلى أبى جعفر من الأمور التى دلت على

(١) ديوان ابن هانىء الأندلسى ص ١٠٦ — ١١٢
(٢) يحيى بن سعيد ص ١٣٢
(٣) الكندى ص ٦٨٤ ، يحيى بن سعيد ص ١٣٢

حكمة ابن الفرات وبعد نظره ، فقدكان ندب رسول من العلويين للقيام بهذه المهمة سبباً فى إجابة مطالب المصريين . وقد تجلى ذلك فى هذه الوثيقة التى اشتملت على شروط الصلح . وقد توجه هذا الوفد فى يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٣٥٨ ﻫ وشيعه جمع كبير من الأهالى [١] .

وقد تلاقى أعضاء هذا الوفد مع جوهر فى مدينة تروجه[٢]، فقبل جوهر ما عرضوه عليه .

وبذلك تم عقـــد الصلح بين المصريين والفاطميين ، ذلك الصلح الذى أودعه جوهر فى هذه الوثيقة التاريخية التى ننقلها عن المقريزى فيما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم أنه ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه وأبو اسماعيل الرسى أيده الله وأبو الطيب الهاشمى أيده الله وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله والقاضى أعزه الله، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم وتدأبوا فيما يلزمكم وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العائدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٠٦

(٢) بلدة قريبة من الاسكندرية

إذ قد تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستذل والممتعة نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكد عزمه واشتد كلبه . فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة وبادره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم وجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزى وشملتهم المذلة واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم وأمضه حالهم وأبكى عينيه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه وما عوده وأرجاه عليه استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم وعذاب أليم وأن يؤمن من استولى عليه الهول ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل وأثر إقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم . وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين . ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر فى أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها وما أعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفى الأذى ورفع الحزن والقيام فى الحق وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان

وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقاد الأحوال وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم فى ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لم شعثهم وأقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم والف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجابرة التى لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم ، وأن أجريكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم واضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وان اتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بيت المال لا بإحالة على من يقبض منهم وغير ماذكره مولاه وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله وأصحابكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه من أنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم تطمينا لأنفسكم . فلم يكن لذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، إذكان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة وهى إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض (عليكم) معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب

عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض إلى آذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم . وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها وتخرجون إلى وتسلمون على وتكونون بين يدى إلى أن أعبر الجسر وأنزل فى المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتكم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين »[1] .

هذا هو نص العهد الذى قطعه جوهر على نفسه وكتبه بيده فى اليوم الثامن من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ وأشهد جماعة الحاضرين عليه . وفى هذا اليوم جلس أعضاء هذا الوفد على مائدة جوهر وذلك تمكينا لأواصر المودة بينه وبين رجالات مصر خاصة وتأليفا لقلوب المصريين عامة .

وهذه سياسة رشيدة من جانب جوهر ، تنطوى على شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . ونحن نعلم ما للسأدب من الأثر فى حل المعضلات السياسية والدينية . ونلاحظ فى هذا الكتاب أموراً ثلاثة :

الأول : تعهد جوهر بنشر العدل وبث الطمأنينة فى النفوس . وذلك بحماية مصر ضد هجمات المغيرين عليها . وكان لذلك العهد أهمية كبيرة . فقد امتدت الفتوح البيزنطية إلى بلاد الشام التى كانت خاضعة للدولة الإخشيدية ،

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٧٠

وكان من الطبيعى أن تمتد غاراتهم إلى مصر نفسها التى كان يهددها خطر القرامطة . ولا شك أن حالة الضعف التى وصلت إليها مصر بعد وفاة كافور، وما نزل بها من وباء وما أصابها من قحط من جراء انخفاض النيل — كل ذلك قد أدى إلى انتشار الفوضى فى البلاد . ولم يجهل جوهر هذه الحالة السيئة التى وصلت إليها مصر ، فضرب على هذا الوتر الحساس ، وهو حماية الأهالى من قطاع الطرق وغيرهم من العابثين بالنظام والأمن العام .

الثانى : ترك الحرية للمصريين فى إقامة شعائرهم الدينية والعمل على إصلاح المساجد وترميمها لاجتماع المسلمين فيها للصلاة والنظر فى أمورهم . على أننا نرى جوهرا لم يغفل الإشادة بذكر العلويين والاعتراف بأحقيتهم فى الخلافة ومعنى ذلك تمهيد السبيل لنشر المذهب الشيعى مذهب الفاطميين .

الثالث : قيام جوهر بما تتطلبه البلاد من وجوه الاصلاح ، وذلك بتحسين السكة ومنع ماعسى أن يتطرق إليها من الغش والزيف ، وإصلاح الجسور ، وتجميل البلاد ، وما إلى ذلك من الإصلاحات التى يعنى بها كل فاتح مصلح .

وفى اليوم السابع من شهر شعبان عاد الوفد إلى الفسطاط يحمل عهد الصلح ، وعرضه على الأهالى فلم يقبلوه . وصمم الإخشيديون وجماعة كافور والجند على مواصلة قتال الفاطميين ، وعهدوا إلى « نحرير » بقيادة جيوشهم ، فنزل إلى الجيزة وأخذ يستعد لملاقاة العدو [1].

وفى الحادى عشر من شعبان من هذه السنة وصل جوهر إلى الجيزة وسار إلى منية الصيادين ، ثم استولى على المخاضة بمنية شلقان حيث عبر النيل إلى مدينة مصر ، فلحق به جعفر بن فلاح (الذى تولى فتح الشام فيما بعد)

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ . ويحيى بن سعيد ص ١٣٢ و ١٣٣

فاستحثه جوهر على عبور النهر مع المغاربة ليكون قدوة لهم وقال له : لهذا اليوم أرادك المعز ! فخلع جعفر ثيابه وعبر النهر مرتديا سراويله ، فتبعه المغاربة (١).

التقى الإخشيديون المغاربة ودار القتال بين الفريقين فدارت الدائرة على المصريين وقتل منهم خلق كثير . وكان من أثر هـــذه الهزيمة التى لحقت بالجنود المصرية أن عبر بعض فالتهم النهر وسلموا إلى جوهر ، ومن ثم سهل القضاء على البقية الباقية من الجنود المصريين الذين ظلوا مرابطين على المخاضة لحراستها . فقد انتزع جوهر ملابسه الخارجية ، وعبر النيل مع رجاله فى السفن ، وانقضوا عليهم وشتتوا شملهم (الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٣٥٨ هـ)(٢)

وبذلك تم فتح مصر ودخلت فى حوزة الفاطميين فاتخذوها جسراً يعبرون عليه إلى المشرق لتحقيق أغراضهم السياسية والدينية . وقد تم ذلك الفتح بسهولة لم تكن منتظرة بفضل ما امتاز به جوهر من المهارة الحربية والسياسية .

وقد توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة فيقسم بلادهم بين الجند . لهذا لا نعجب إذا رأينا المصريين يخشون عاقبة خروجهم على العهد الذى عرضه عليهم الوفد الذى أنابوه عنهم فى مفاوضة جوهر فى الصلح فيرجون أبا جعفر مسلم العلوى أن يتداخل فى الأمر من جديد ويطلب الأمان من جوهر . وعلى الرغم من أن جوهرا قد فتح هذه البلاد عنوة فقد عامل أهلها معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، كما عاملهم عمرو ابن العاص من قبل فتألف بذلك قلوبهم واكتسب محبتهم فدانوا له بالطاعة ورضوا بحكمه .

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١١٩

(٢) أبو المحاسن ص ٤٠٧ و ٤٠٨ والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٢

وهنا نرى جوهرا يقيم الدليل على بعد نظره وحسن سياسته . فقد عفا عن المصريين وأذاع على جنوده بيانا يحرم فيه عليهم الإتيان بأى عمل من أعمال العنف والشدة ، كما جـــدد لأهل مصر الأمان وضمن لهم استتباب الأمن فى البلاد فى ذلك الكتاب الذى ينم عن أدب القائد الفاطمى وتواضعه وهو فى كامل قوته وفتوته . وهاك نص هذا العهد بعد البسملة نقلا عن المقريزى :

« وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه وهو المهنا بما هنأ به من الفتح الميمون فوقفت على ماسأل من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله وجعلت إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أمانى وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ويعمل الشريف أيده الله على لقائى فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان »(١) .

وبذلك زالت مخاوف الأهالين وأصبحوا فى أمن ودعة ، ولا سيما بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علماً عليه اسم المعز لدين الله وأمنا الناس من جديد وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤونة فابتهج الناس وهدأت المدينة وعاد الأمن إلى نصابه . فلما كان الغد (الثلاثاء ١٧ شعبان) خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة . فلما وصلوا إليها أقبل القائد جوهر فى عساكره ووقف الشريف عن يمينه والوزير عن يساره ، فصاح بعض حجاب جوهر « الأرض » فقبلوا كلهم الأرض بين يديه هذا الشريف

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٢

والوزير . وتقدم الناس واحدا واحدا ، فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى الفسطاط .

ولما غربت الشمس عبرت الجنود الفاطمية الجسر وبين أيديهم الصناديق الملأى بالأموال محمولة على البغال . ثم أقبل جوهر فى حلة مذهبة فى فرسانه ورجالته وعسكر بجيشه فى الموضع الذى اختط فيه مدينة القاهرة . وحين ذهب المصريون فى اليوم التالى لتهنئة جوهر وجدوه قد حفر أساس قصر المعز فى الليل[١].

ولما اتصل بالمعز نبأ فتح مصر سر سرورا عظيما وأنشد محمد بن هانىء شاعر بلاطه قصيدة طويلة مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
قد جاوز الاسكندرية جوهر   تصاحبه البشرى ويقدمه النصر[٢]

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين جميعاً عن مصر وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية . فغدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً . « ونافست القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية . وقد كان لتلك المنافسة أبعد الأثر فى الحضارة »[٣] .

وكان استيلاء الفاطميين على هذه البلاد الخطوة الأولى لمد نفوذهم إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التى كانت جزءا من أملاك الدولة الإخشيدية وبذلك تحقق الغرض الأول الذى كان يرمى إليه الفاطميون وهو إنشاء دولة فاطمية فى الشرق والغرب[٤] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٠ والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٧

(٢) ديوان ابن هانىء الأندلسى ص ٦٨

(٣) Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 119—120

(٤) Lane-Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

الباب الثالث

سياسة جوهر فى مصر

فتح سورية :

قد ذكرنا أن الغرض الأول من استيلاء جوهر على مصر هو بسط نفوذ الفاطميين على المشرق . فإن استيلاءهم على مصر معناه الوصول إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، وإنشاء دولة فاطمية فى المشرق والمغرب ، حتى إذا تم لهم ذلك استطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين .

كانت بلاد الشام فى ذلك الوقت تابعة للدولة الإخشيدية . ولم يجهل الإخشيديون — وقد دالت دولتهم فى مصر — ما كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين والحجاز . لذلك أعد الحسن ابن عبيد الله بن طغج الإخشيدى والى الرملة ودمشق العـــدة لملاقاة الفاطميين ، فاستخلف شمولا الإخشيدى على دمشق وسار هو إلى الرملة . على أن شمولا لم يخلص للحسن ، وكاتب جوهرا يدعوه للحضور إلى دمشق ووعده العون على فتحها ، ثم تقاعد عن نصرة الحسن حين طلب إليه القدوم عليه ، فى الوقت الذى وصلت فيه جيوش الفاطميين إلى فلسطين بقيادة جعفر بن فلاح ، من قبيلة كتامة من البربر وأحد قواد المعز الذين أرسلهم إلى مصر مع جوهر . فلما عزم جوهر على فتح الشام وفلسطين عهد إلى جعفر بالقيام بهذه المهمة لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة . هذا إلى أن جوهراً أراد بذلك أن يبعد جعفراً عنه ويطوح به فى بلاد الشـــام حتى

لاينافسه فى مصر . فقد كان جعفر يرى فى نفسه أنه أفضل من جوهر وأحق منه بإمرة مصر .

سار جعفر إلى بلاد الشام وكاتب ولاة الأقاليم يدعوهم إلى طاعة المعز ويعدهم حسن المكافأة ، ثم التقى جيش جعفر مع جيش الحسن بن عبيد الله فى الرملة ، فدارت الدائرة على الحسن وأسر هو وكثير من جنده[١] ، ثم سيق إلى الفسطاط فحبس بها ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب فبقى بها حتى مات سنة ٣٧١ ﻫ .

استأنف جعفر بعد ذلك السير إلى طبرية لمحاربة فاتك الذى وليها من قبل الأخشيديين ، فاستولى على المدينة من غير أن يلقى مقاومة تذكر . ولما علم أهل دمشق باستيلاء جعفر على الرملة وطبرية خشوا بأسه ، فأوفدوا إليه جماعة من كبار رجالهم . وقد اتفق وصولهم فى اليوم الذى قتل فيه فاتك وإلى طبرية واشتعال نار الفتنة على أثر مقتله . فلم يحسن جعفر وفادتهم ، فعادوا إلى دمشق ساخطين عليه وعلى جنده من المغاربة[٢] . وهـــذا يفسر لنـــا الصعوبة التى لاقاها جعفر فى استيلائه على دمشق .

بعد أن هزم جعفر بنى عقيل ومن إليهم من العرب فى حوران وطارد الفالة منهم إلى حمص ، سارت جنوده إلى دمشق ، وكان شمول قد تركها لملاقاة جعفر بطبرية . فاشتدت الفوضى فى المدينة وعم الاضطراب واستولى الذعر على القلوب وحمل الناس السلاح ، وخرج أهل دمشق مشاة وفرسانا لقتالهم . واستمر القتال طول يوم الجمعة حتى غروب الشمس ، ثم اشتد على أثر وصول جعفر إلى دمشق (١٠ ذى الحجة سنة ٣٥٨ ﻫ) . وحملت

---

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٩

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨١

المغاربة على جند الشام وهزموهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ثم دخلوا المدينة واستولوا عليها فى المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، ثم ألقوا النار فى أسواقها ورحابها .

ولما رأى أهل دمشق هزيمة جندهم وأنه لاقبل لهم بالفاطميين ، خرج بعض ذوى أهل الرأى والجاه منهم لمقابلة جعفر ، وطلبوا إليه العمل على إصلاح حال مدينتهم وإعادتها إلى ما كانت عليه . فقبض عليهم بعض المغاربة وسلبوهم ثيابهم وجرحوا كثيرين منهم ، فأثار هذا سخط أهل دمشق فشقوا عصا الطاعة وأذكوا نار الفتنة .

على أن هذه الفتنة لم تلبث أن خمدت أمام قوة جعفر ، ومن ثم لم يجد الأهلون بدا من أن يخطبوا وده . فذهبت جماعة منهم لمقابلته وطلب الأمان منه . فلم يقبل منهم جعفر ذلك حتى يخرجوا إليه ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور فيتمرغن فى التراب بين يديه[1] ، فرضوا بذلك صاغرين . على أنه لم يلبث أن هدأت ثائرته فتبسط معهم فى الحديث واستقر الرأى بينه وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة فى مسجد دمشق . وفى ذلك اليوم ركب جعفر فى أصحابه ودخل المدينة وصلى بالجامع ، حيث حذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمى ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٣٥٩ هـ[2] . وقد انتهز أصحاب جعفر فرصة وجودهم بالمدينة فنهبوا الناس ، فثار أهل دمشق عليهم وقتلوا كثيرين منهم . ولم يجد شيوخ المدينة بدأ من مقابلة جعفر لإعلان استيائهم مما حدث وطلب الأمان من جديد . فقال لهم « دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلوهم »[3] . ثم هـــددهم باستعمال

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٢
(٢) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٤٠٩
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٣

العنف والقسوة معهم، فهدأوا روعه وتلطفوا معه فى القول، حتى وعدهم العفو إذا هم دفعوا دية من قتل. فجمعوا له الأموال الكثيرة حتى ساءت حال المدينة لما نزل بأهلها من الإرهاق .

من ذلك يتبين لنا هوادة جعفر فى ضبط جنده وكبح جماحهم حتى بلغ بهم الاستهتار بمركز القيادة أن كانوا يعترضون وفود الصلح والسلام من أهل دمشق، فيقتلونهم ويسلبون أموالهم وثيابهم، مما أثار نفوس الأهلين عليهم ووقف حجر عثرة فى سبيل فتح هذه المدينة. وهذا يوضح لنا حكمة جوهر وبعد نظره وحسن سياسته. فانه لما دخل الإسكندرية أمر جنده بالكف عن أعمال السلب والنهب حتى دانت له البلاد وألقت بزمامها اليه، مع أن جنود جوهر من المغاربة الذين تم على أيديهم فتح مصر، هم جنود جعفر بن فلاح الذين وجههم جوهر لفتح بلاد الشام وفلسطين .

وقد رأى جعفر أن الاضطرابات لن تهدأ فى دمشق وأنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين فيها، إلا بالقضاء على زعماء الفتنة، فأرسل جنده من المغاربة فى طلبهم، فقبضوا عليهم، فأمر جعفر بهم فضربت أعناقهم وصلبت جثثهم وعلقت رءوسهم على الأبواب، وكان من بين هؤلاء اسحق بن عصودا ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبى يعلى العباسى ومحمد بن عصودا، وكانا من أظهر زعماء الثورة. أما ابن أبى يعلى فقد هرب من الشام يريد بغداد، فقبض عليه عند تدمر وأرسل إلى جعفر حيث شهر به. فحمل على جمل وفوق رأسه قلنسوة وفى لحيته ريش، وبيده قصبة[1] ثم بعث به إلى مصر. وقد ذكر أبو المحاسن[2] أن الشريف أبا القاسم لما هرب إلى بغداد، قال ابن فلاح «من أتانى به فله ألف درهم». فلقيه ابن غلبان العدوى فقبض عليه وساقه إلى

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص٨٣

(٢) ج ٢ ص ٤١٠

ابن فلاح فشهر به. ثم طلبه ليلا وقال له : « ما الذى حملك على ماصنعت، ومن ندبك إلى ذلك ؟ » فقال أبو القاسم : « ماحدثنى به أحد وإنما هو أمر قدر » فرق له جعفر ووعده بأن يكاتب فيه القائد جوهراً . ولا غرو فقد كان ابن فلاح يحب العلويين ، فأحسن إليه وأكرمه . أما محمد بن عصودا فقــد لحق بالقرامطة فى الأحساء هو وظالم بن موهوب العقيلى والى حوران من قبل الإخشيديين .

وبذلك تم فتح بلاد الشام وفلسطين ، ودان أهلها لسلطان الفاطميين ، فتحقق الغرض الذى كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من فتح مصر واتخاذها جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى بلاد المشرق . على أن فتح هذه البلاد ،وإن كان قد تم على يد جعفر بن فلاح ، فقد كان لسياسة هذا القائد ، وما ارتكبه من أعمال العنف والشدة وإطلاقه العنان لجنده للعبث بالنظام والاستهتار بأرواح الأهلين ، أثر سيء فى صرف قلوبهم عنه ومشايعة زعمائهم وتآمرهم ضده وضد جنده من المغاربة . ومن ثم كانوا لا يدعون فرصة تمر دون أن ينتهزوها للخروج على سلطان الفاطميين . وقد ظهر أثر هذه السياسة الخرقاء فى استنجاد أهل الشام بالقرامطة وأفتكين مما سنفصله بعد .

تهديد سلطان الفاطميين فى سورية :

كانت دمشق قبل استيلاء الفاطميين عليها تدفع لزعيم القرامطة الحسن ابن احمد جزية سنوية قدرها ثلاثمائة الف دينار . فلما استولى عليها الفاطميون قطعوا الجزية عنه ، فصمم القرامطة على إكراههم على دفعها . ولم يتردد الحسن القرمطى فى أن يطلب التحالف مع الخليفة العباسى السنى فى بغداد ضد الفاطميين الشيعيين فى مصر . بيد أن الخليفة العباسى قد رفض التحالف معه . ففكر الحسن فى استمالة بنى بويه إليه ، وكانوا أصحاب النفوذ الفعلى فى بلاد العراق ،

فرفض هؤلاء أيضاً أن يحالفوه ؛ ولم يقبل التحالف معه سوى أمير الرحبة[١] من الحمدانيين وبعض القبائل العربية[٢] .

وقد سار الحسن القرمطى الملقب بالأعصم إلى الدكة[٣] حيث اشتبك هو وجند جعفر فاستهان به جعفر ، ولكن جنده لم تلبث أن تخاذلت عنه وانفضت من حوله ، فهزم ثم أسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ) وقد عثر محمد بن عصودا على جثته خارج دمشق فقطع رأسه وصلبه على حائط داره ، انتقاماً لأخيه إسحق الذى قتله جعفر وصلبه[٤] .

بذلك انتهت حياة القائد الذى نشر سلطان الفاطميين فى سورية وانتزعها من يد الإخشيديين وأذل زعماء الثورة التى قامت فى وجهه .

وقد عزا المقريزى ما حل بجعفر بن فلاح إلى ما ارتكبه من الخطل وسوء التدبير والتباهى بنفسه ، حتى ترفع عن جوهر وعز عليه أن يكاتبه وكاتب المعز موقعاً فى جوهر ، مبيناً ما بذله من الجهد فى فتح بلاد الشام وفلسطين[٥] . فلما وصلت كتب جعفر بن فلاح من الشام إلى المعز وهو ببلاد المغرب ، لم يفضها وأمر بردها إليه مع كتاب منه ينبهه إلى ما ارتكبه من سوء التصرف ويأمره بمكاتبة جوهر باعتباره رئيسه المباشر ، وذلك على الرغم من مكانة جعفر فى نفس المعز ، تلك المكانة التى لم تفقده شيئاً بجانب تمسك المعز بجوهر وثقته به لشدة إخلاصه وحسن بلائه . ولما علم جوهر بذلك غضب على جعفر . وكان لذلك أثر عظيم فيما صادف جعفراً من الصعاب فى

(١) الرحبة : بلدة واقعة على نهر الفرات

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٥٠٩

(٣) الدكة : بلدة واقعة على نهر يزيد على مقربة من دمشق .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١

(٥) الخطط ج ١ ص ٣٧٨

فتوحاته ، إذ أنه أحجم عن مكاتبة جوهر وطلب الإمداد منه خشية أن يتقاعد عن نصرته . وظلت الحال على ذلك حتى قدم الحسن بن احمد القرمطى وأوقع بجعفر وأرداه قتيلا . وقد وجد على باب قصر جعفر بدمشق بعد موته هذان البيتان :

يا منزلا عبث الزمان بأهله ۝ فأبادهم بتفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة ۝ كان الزمان بهم يضر وينفع؟

وهكذا استولى الحسن القرمطى على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، ولعن الخليفة الفاطمى المعز على منبر المسجد الأموى بدمشق . وقد علق الدكتور De Lacy O'Leary على ذلك بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهى للإمام الفاطمى . ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً ، وقد يرجع هذا إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين غالين فى عدائهم للشيعة أو إلى القرامطة الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الانتماء إلى آل على والذين لا يكترثون بالاعتبارات الدينية أيا كانت »[1] .

(ا) أفتكين

كان أبو منصور أفتكين التركى الشرابى غلاماً لمعز الدولة أحمد بن بويه . ولم يزل يترقى حتى عظم شأنه فى بغداد وغلب على عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه . فلما سار الأتراك من بغداد لقتال الديلم اشتهر أفتكين بالشجاعة والإقدام ، إلا أن أصحابه انفضوا من حوله وتركوه ولم يبق معه سوى طائفة قليلة العدد. فسار إلى الرحبة فى نحو أربعمائة رجل .فخشيه العرب ، وخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلى من بعلبك ، بعد أن بعث إلى أبى محمود إبراهيم بن جعفر والى دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى يعلمه

---

(١) De Lacy O' leary : The Fatimid Khalifate P. 108

بأن أفتكين قد غادر بغداد وأنه فى طريقه إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسى . فأرسل إليه والى دمشق جيشا سار نحو حوشبة لمقاتلة أفتكين الذى أمده أبو المعالى بن حمدان بجيش كبير . فلما رأى ظالم أنه لاقبل له بمنازلته عاد إلى بعلبك . وسار أفتكين إلى حمص ، فتلقاه أبو المعالى بالقبول وأكرم وفادته .

وقد ثار فى ذلك الحين بدمشق جماعة بزعامة ابن الماورد وحاربوا ولاة المعز واشتد خطرهم . فلما بلغهم خبر خروج أفتكين بعثوا إليه بحمص يدعونه ويعدونه باذكاء نار الثورة وأن يكونوا معه على جند المعز وعونا له على إخراجهم من دمشق ليصبح هو واليا عليها[1] . ولا غرو فقد كان أهل دمشق خاصة وأهل الشام عامة يكرهون المغاربة لمخالفتهم لهم فى المذهب الدينى من جهة ، وسوء سياسة الفاطميين فى بلادهم من جهة أخرى . ومن ثم سار أفتكين حتى وصل بثنية العقاب فى أواخر شعبان سنة ٣٦٤ هـ[2] .

دخل أفتكين دمشق من غير حرب وأقام فيها أياماً ، ثم سار لقتال ظالم ابن موهوب العقيلى . ففر ظالم من وجهه ودخل أفتكين بعلبك . وكان الروم قد سبقوه إليها ، فانتهزوا فرصة دخوله بها ، فنهبوها وانتشروا فيها يحرقون ويسرقون ويقتلون (رمضان سنة ٣٦٤ هـ) . ثم قصدوا دمشق ، وكان أفتكين قد وصل إليها ، فقابلهم أهلها وطلبوا إليهم الرحيل فى مقابل مال يؤدونه إليهم ؛ ثم استقبلهم أفتكين وأخبرهم أنه لايستطيع جباية الأموال لنفوذ ابن الماورد وأصحابه بها . فأمر إمبراطور الروم بالقبض على ابن الماورد . واشتط أفتكين فى جباية الضرائب حتى جمع ثلاثين ألف دينار ، أخذها

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩ .
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ .

الإمبراطور وذهب إلى طرابلس . وبرحيله عن دمشق قوى نفوذ أفتكين فيها ودعا للطائع العباسى[1] .

وفى ذلك الحين ظهر القرامطة على مسرح السياسة المرة الثانية ضد الفاطميين الذين طالما تغنى القرامطة بأنهم من مذهبهم وبأنهم ينشرون الدعوة لهم . فقد استدعاهم أفتكين من الأحساء لمعاونته على قتال الفاطميين . فقدموا دمشق فى سنة ٣٦٥ هـ ، ومعهم كثير من أعوان أفتكين الذين شتت المعز شملهم ؛ فقوى بذلك نفوذهم ، واجتمعوا على إخراج الفاطميين من هذه البلاد .

ترك القرامطة وأفتكين دمشق إلى الرملة فنزلوا بها ، وهاجموا يافا . ثم واصل أفتكين سيره على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى صيدا ، وكان بها ظالم بن موهوب العقيلى وابن الشيخ والياها من قبل المعز . فقاتلهم ابن الشيخ قتالا شديدا ، وقتل من الفريقين نحو أربعة آلاف رجل . وانتهى القتال بهزيمة ابن الشيخ وتراجع ظالم إلى صور . وقد انتقم أفتكين من جنود المعز فقطع أيدى القتلى وأرسلها إلى دمشق ، فطيف بها ، ثم سار إلى عكا وبها حامية المعز .

وهكذا تفاقم خطر القرامطة وأفتكين فى الشام واستعصى أمرهما على الفاطميين ؛ ولم يتم القضاء عليهما إلا فى عهد العزيز الفاطمى على يد جوهر ، وهو ماسنفصله فى الباب الخامس .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩ .

صد جوهر غارات القرامطة عن مصر :

خشى جوهر ، بعد استيلائه على مصر ، خطر القرامطة لما كان يراه من تخريبهم وتدميرهم الولايات العباسية وغيرها من الأقاليم التى أغاروا عليها ، وكذا تعرضهم لقوافل الحجاج وسلبهم أموالهم . فقد ذكر المقريزى أن السبب الذى حدا بجوهر إلى تأسيس القاهرة هو خوفه من غارات القرامطة على مصر وتوقعه هذه الغارات من حين لآخر . ومن ثم بنى سور القاهرة وضم بين جوانبه الخطط التى تكونت منها القاهرة المعزية ليكون هذا السور حصنا منيعاً ضد هجمات القرامطة[1] . وقد صدق حدس جوهر ، فقد هدد القرامطة مصر من ناحية الشرق بعد اشتباكهم مع الفاطميين فى الشام واستردادهم دمشق من جعفر بن فلاح وأسره وقتله .

سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيديين بعد أن هرب واليها سعادة بن حيان الذى ولاه عليها جوهر فى شوال سنة ٣٦٠ ﻫ إلى يافا . ثم استأنف الحسن مسيره إلى مصر فوصل إليها هلال ربيع الأول سنة ٣٦١ ﻫ[2] ، ودخل مدينة القلزم (السويس) وأسر واليها عبد العزيز بن يوسف[3] ونهب ما كان يملك من الخيل والإبل ثم هاجم الفرما ودخلها على حين غفلة من أهلها فى المحرم سنة ٣٦١ ﻫ . فكان بذلك صاحب النفوذ فى برزخ السويس ، واعترفت بسلطانه مدينة تنيس وخرجت على واليها . وقد وزعت المنشورات فى جامع عمرو لحض الناس

---

(١) الخطط ج ١ ص ٣٥٧

(٢) أبو المحاسن ج ٤ ص ٤٣٢

(٣) فى ديوان المتنبى أبيات كثيرة من الشعر عن عبد العزيز هذا . ولا غرو فإن المتنبى هو الذى سهل له طريق الهروب من مصر وأضافه عنده

على عصيان جوهر . ثم أمعن الحسن السير فى داخل البلاد وعسكر برجاله فى عين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة(١) .

ولما سمع جوهر بوصول الحسن إلى برزخ السويس بدأ يستعد لقتاله . فحفر خندقا أقام عليه بابين من الحديد كانا على ميدان الإخشيد ، وبنى قنطرة على الخليج ووزع السلاح على المغاربة والمصريين . ثم بعث جوهر رجالا من عنده إلى معسكر القرامطة تظاهروا بالسخط على الفاطميين والرغبة فى التخلص من حكمهم ، وما زالوا يبذرون بذور الفتنة بين القرامطة حتى انتشرت الفوضى فى جيوشهم ودب الانقسام فى صفوفهم(٢) .

وقد بدأ القتال مع القرامطة فى أوائل ربيع الأول عند باب القاهرة ، وقامت بين الفريقين معركة أسر وقتل فيها عدد كبير من الجانبين . وظلت الحرب بينهما سجالا حتى حاول زعيم القرامطة وقائد جيوشهم الحسن بن أحمد الاستيلاء على الخندق عنوة ، وكان باب القاهرة حينئذ مغلقاً . فلما غربت الشمس أمر جوهر بفتح الباب . فابتدأ القتال ، واستعرت نار الحرب التى انتهت بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم(٣) .

وقد أظهر جوهر فى هذه الحروب شجاعة نادرة ومهارة فائقة . فقد حمل على القرامطة حملة صادقة فردهم على أعقابهم مدحورين مهزومين بعد أن كادت البلاد تقع فى أيديهم وتتعرض لكثير من الويلات والمحن . وليس أدل على مبلغ استياء جوهر منهم وحنقه عليهم من إعلانه فى البلاد عقب رحيلهم إلى القلزم مكافأة كل من أتى له بقرمطى أو برأسه بثلاثة آلاف دينار

---

(١) G. wiet : Precis d'Histoire Musulmane de l'Egypte, P. 32

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٣ .

(٣) أبو الفداء : ج ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٦

وخمسين خلعة وخمسين سرجا[١] . وقد استولى المصريون على ماتركه القرامطة من الأسلاب فى ميدان القتال .

ولاشك فى أن جوهراً مدين بالنصر لما قام به الجند المتطوعة من المصريين من الدفاع المجيد ، فقد رأوا بلادهم مهددة بالغزو ، وأموالهم معرضة للضياع وأرواحهم للهلاك . فصمدوا للقتال حتى ردوا القرامطة ، ثم انتقموا ممن مالأ العدو من الجند الإخشيدية ، فأسروا وقتلوا عدداً كبيرا منهم . وفى ذلك يقول ابن القلانسى « ونادى جوهر فى الإخشيدية فاجتمعوا ، فعمل لهم طعاما وحلف لهم على المصافاة ، ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم[٢] ، وكانوا ألفا وثلثمائة مقاتل »[٣] .

كان هؤلاء الجنود مصدر الشغب وإثارة الفتن والقلاقل فى البلاد . فرأى جوهر أن الأحوال لاتستقيم بإطلاق الحرية لهم . وهذا يفسر لنا عدوله عن العهد الذى قطعه على نفسه بمصافاتهم ، ولم ير بدأ من منع أذاهم باقصائهم عن الجمهور .

ولما سمع المعز وهو ببلاد المغرب خبر غزو القرامطة مصر ، أرسل جيشا من القيروان تحت قيادة أبى محمد الحسين بن عمار . فزادت قوة جوهر الحربية وعزم على إخضاع مدينة تنيس والانتقام من سكانها الذين والوا القرامطة وانضموا إليهم . فسار إليها وأخضع أهلها ولكنه عفا عنهم . ثم رجع أسطول القرامطة من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وعاد الحسن إلى دمشق ليتأهب للقتال من جديد[٤] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٦

(٢) وقد أطلق المعز سراحهم حين قدم مصر سنة ٣٦٢ هـ : المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩١

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٤) De Lacy O'leary : The Fatimid Khalifate p . 109 .

ولما وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ رأى أن ملكه لا يزال معرضاً لخطر القرامطة . فإنهم ما فتئوا يهددون مصر ، ويتابعون الإغارة عليها لانتزاعها من الفاطميين . فأرسل المعز إلى الحسين بن أحمد القرمطي كتاباً عنوانه :

« من عبد الله ووليه وخيرته وصفيه معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين رسالة خير النبيين ونجل على أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد »(١) .

وقد بدأ المعز هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذكر الحسن فيه « بسنة الأوائل الابتدا بالاعذار والانتها بالإنذار » ، كما ذكره أن جديه أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بنفوذهما للفاطميين ويعتنقان مذهبهم . ثم ندد بسياسة الحسن وأظهر حنقه عليه واستياءه منه في تلك العبارة : « أما أنت أيها الغادر الخائن الناكث البائن على هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ من دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفي عني خبرك ، ولا استتر دوني أثرك . وإنك مني لبمنظر » وفي نهاية الكتاب عرض عليه المعز ثلاث خصال ليختار لنفسه منها واحدة : إما أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب في حروبه مع جعفر وجنده بدمشق وسعادة بن حيان ورجاله بالرملة ، وإما أن يردهم أحياء ، وهو ما لا قبل له به ، وإلا أن يسير هو وأتباعه إلى المعز فيحكم عليهم بالقصاص أو الفدية .

وقد رد الحسن على ذلك الكتاب الطويل الذي بعث به الخليفة الفاطمي اليه بتلك الكلمات : لقد تسلمت كتابك المملوء بالألفاظ ، الخالي من المعاني وسيأتيك جوابي .

ويظهر لنا أن الحسن القرمطي كان ينوي إعادة الكرة والإغارة على

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢

من جديد . ولم يصرفه عن ذلك تلك الهزيمة التى حلت به على يد جوهر ، بل ولم يرهبه ما أظهره المعز فى كتابه اليه من التباهى بقوته والاستخفاف بجند عدوه . يتضح لنا صحة هذا القول من هذين البيتين اللذين نظمهما الحسن بعد هزيمته :

زعمت رجال العرب أنى هبتها   فدمى إذا ما بينهم مطلول
يامصر إن لم أسق أرضك من دم   يروى ثراك فلا سقانى النيل(١)

وقد ظهر القرامطة فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٣ هـ للمرة الثانية فى عين شمس ، وعاونهم أنصار الإخشيدية الذين انتشروا فى جميع أنحاء مصر . فبعث المعز ابنة عبد الله إلى الوجه البحرى على رأس جيش عظيم من أربعة آلاف مقاتل ، هزموا القرامطة فى عدة وقائع . غير أن هذه الهزائم المتكررة لم تفت من عضد القرامطة . فقد اجتمعت أمام الخندق الذى حفره جوهر وأعدوا المعدات لاجتيازه(٢)

وقد استطاع الخليفة الفاطمى بواسطة جواسيسه أن يفسد قبيلة بنى طى من العرب ، فرشا زعيمها حسان بن جراح الطائى . وكانت هذه القبيلة أقوى العناصر فى جيش الحسن القرمطى . وبذلك نجحت سياسته فى فصل هذه القوة الكبيرة عن القرامطة . وقد خصص المعز لذلك مائة ألف دينار . ولما لم يكن فى بيت المال من الدنانير مايكفى لتحقيق هذه الفكرة ، أمر المعز بضرب نقود زائفة من الرصاص ، مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، وضعت فى أكياس ووضع فى أعلاها قليل من الدنانير المضروبة من الذهب الخالص . فلما استعرت نار الحرب بين الفريقين انصرف بنو طى ، وولى

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٣ — ١٣٤

(٢) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, P. 113

ابن الجراح منهزماً ، وتشتت شمل القوة التى بقيت مع الحسن القرمطى ، فنهب معسكره وقتل من أتباعه نحو ألف وخمسمائة وذلك فى رمضان سنة ٣٦٣هـ ومن ذلك الوقت بدأت قوة القرامطة فى الضعف لوقوع النزاع بينهم، فارتدوا عن مصر إلى غير رجعة (١).

الدعوة الفاطمية فى مصر :

كانت القيروان أو المهدية لاتصلح حاضرة للدولة الفاطمية ، لبعدها عن الولايات الاسلامية التى كان الفاطميون يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، كالشام وفلسطين . ولما كانت مصر واسطة العقد بين الأمم الاسلامية ، فضلا عما اشتهرت به من الخصب ونماء الثروة ، فكر المهدى الفاطمى فى غزوها وجعلها حاضرة الدولة الفاطمية بعد أن وطد سلطانه فى بلاد المغرب . ولا غرو فإن فكرة غزو هذه البلاد قديمة توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض . فإن امتلاك مصر معناه نشر عقائد المذهب الفاطمى فى ثلاثة من الحواضر الإسلامية الكبيرة : وهى المدينة والفسطاط ودمشق ، فقد كان كل من الشام والحجاز تحت سلطان مصر فى ذلك الحين .

غزت جيوش المهدى الفاطمى هذه البلاد ثلاث مرات : أما الأولى ففى سنة ٣٠١ هـ ، والثانية ابتدأت سنة ٣٠٧ هـ ولم تنته إلا سنة ٣٠٩ هـ فى حين ابتدأت الغزوة الثالثة سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدى سنة ٣٢٤ هـ .

وهذه الغزوات ، وأن كانت قد فشلت من الوجهة الحربية ، إلا أنها قد مهدت السبيل لنشر الدعوة الشيعية فى مصر . فقد أصبح فيها عدد كبير يعطف على تلك الدعوة ، وكاتبوا الفاطميين وطلبوا إليهم غزو مصر ووعدوهم العون

---

(١) De Lacy O'leary : The Fatimid Khalifate, P. 110

على فتحها . يدل على ذلك الخطبة التي ألقاها المعز على رؤساء كتامة قبيل رحيل جوهر إلى مصر . فقد جاء فيها : « وإني مشغول بكتب ترد عليّ من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي[1] » . وما ذكره أبو المحاسن من أن الشيعيين في مصر أرسلوا إلى المعز كتباً جاء فيها : « إذا زال الحجر الأسود[2] فقد ملك مولانا المعز الدنيا كلها[3] » ، وكان لهذه المكاتبات التي دارت بين المصريين والمعز أثر عظيم في تسهيل فتح مصر على يد جوهر[4] . ثم هذه الأبيات التي نظمها ابن مهران ممن شهد هذه الحوادث من الشعراء ، ننقلها عن الكندي :

وقد حشدوا لمصر ودون مصر ... (له) خرط القتاد وأى خرط
وأقبل جاهلا حتى تخطى ... وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه ... من أقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه ونافقونا ... وكل في البلاد له موطى[5]

ويظهر أن الدعوة للفاطميين في مصر قد انتشرت وجذبت إليها كثيرين من الأنصار ، حتى إن ذكا الرومي والي مصر (٣٠٣ — ٣٠٧ هـ) قد خشي استفحال أمر هذه الدعوة . فأخذ في اضطهاد القائمين بها ، فسجن كثيرين منهم ونكل بهم .

ولا شك أن الدعوة للبيت العلوي قد صادفت نجاحا عظيما في مصر ، فقد أصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويعمل على نشره . ويرجع

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٦٠ — ٦٦
(٢) يقصدون كافورا الذي كان يتولى حكم مصر إذا ذاك
(٣) ج ٢ ص ٤٤٣
(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٦٦
(٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٢٧٢

ذلك إلى ما كان من إدماج الفاطميين فى صفوف جندهم ، الذين أوفدوهم لفتح مصر ، دعاة يمهدون إليهم الاختلاط بالناس وتعليمهم عقائد المذهب الفاطمى . أضف إلى ذلك ماقام به الخلفاء الفاطميون من تشجيع هذه الدعوة، بإرسال الكتب بخطهم مذيلة بإمضاءاتهم لهذه البلاد يدعون الناس فيها لاعتناق العقائد الفاطمية . فقد كتب الخليفة الفاطمى القائم (٣٢٢ — ٥ ، ٩٣٤ — ٩٤٥ م) كتابا بيده إلى محمد الإخشيد والى مصر يدعوه إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى وإزالة اسم الخليفة العباسى منها. غير أن هذا الكتاب لم يكن له أثر يذكر فى نفس الأخشيد، فأهمل رسول الخليفة القائم ولم يجب على هذا الكتاب بشىء .

على أن إرسال الخليفة العباسى محمد بن رائق الخزرى إلى الشام لأخذ مصر وطرد الإخشيد منها قد أحفظ الاخشيد وأثار حنقه . فتبدلت صلة الصداقة التى كانت تربطه بالخليفة العباسى إلى عداء مستحكم . فأمر الاخشيد بإيقاف الخطبة للخليفة العباسى وإقامتها للخليفة الفاطمى .

وقد روى ابن سعيد نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسى فى مصر أن الإخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسى وأمر بذكر الخليفة الفاطمى محله. وذكر أن السبب فى ذلك هو ما اتصل بالإخشيد عن مسير ابن رائق لتسلم مصر منه بأمر الخليفة العباسى ، مما أثر فى نفس الإخشيد ، فأمر الخطيب بالدعوة للقائم الفاطمى[١] .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فقد كان ذلك خطوة كبيرة للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين زاد عدد أتباعهم فى هذه البلاد .

على أن الخطيب العباسى لم يبين لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمى . فإن المؤرخين لم يكشفوا لنا عما إذا كان اسم الخليفة العباسى قد

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ص ٢٥ — ٢٦

حذف من الخطبة بالفعل ، إذ لو قطعت الخطبة للخليفة العباسى لما ضن المؤرخون بموافاتنا بهذا الخبر لأهميته وخطورته . فإن ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقشه على السكة من أهم مظاهر الخلافة فى الولايات الإسلامية .

إلا أن ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، وذلك العداء المستحكم بين الخليفة العباسى والإخشيد ، وقيام علاقات المودة بين الإخشيد والفاطميين ، وظهور فريق من المتشيعين فى مصر يعمل على نشر المذهب الفاطمى - كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن الإخشيد قد قطع الخطبة للخليفة العباسى المطيع ولو إلى حين .

وقد ظلت علاقات المودة قائمة بين مصر وبلاد المغرب ، حتى أن الإخشيد عرض على القائم أن يزوج ابنه المنصور من ابنة الإخشيد . فوافق القائم على ذلك وبعث بموافقته إلى الإخشيد . فأرسل هذا إليه صداقاً قدره مائة ألف دينار . فاستقل القائم هذا المبلغ ، ومن ثم توترت العلاقات بين الإخشيديين والفاطميين .

هذا مارواه لنا ابن سعيد ونحن نشك فيه كل الشك . إذ كيف يعقل أن يعرض الإخشيد ، وهو أحد ولاة الخليفة العباسى ، أن يزوج ابنته من ولى عهد الخليفة الفاطمى الذى كان يضمر له العباسيون الكراهية والبغضاء . ولعل الخليفة العباسى قد سير ابن رائق لتسلم زمام مصر من الإخشيد حين اتصل بعلمه نبأ هذا الزواج ، فعدل الإخشيد عن المضى فى هذا السبيل : ومات هو والخليفة الفاطمى بعد قليل ، واشتغل ابنه المنصور بالقضاء على ثورة أبى يزيد ومن ثم فشل مشروع الزواج وانقطعت العلاقات الودية بين مصر وبلاد المغرب .

ولم يحاول الفاطميون غزو مصر فى البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ) . لأن قيام الثورات التى

أذكى نيرانها الخوارج — ولاسيما ثورة أبي يزيد — قد استنفدت جهود الخليفتين كما استنفدت كل موارد البلاد المالية .

وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الخليفة المعز رابع الخلفاء الفاطميين ، فحاول إعادة الكرة لغزو مصر . وقد سارت جيوشه إليها في عهد كافور الإخشيدى ، ووصلت إلى حدود هذه البلاد الغربية ، حيث حالت الجيوش المصرية دون تقدمها داخل البلاد ، على الرغم من استقباله في بلاطة دعاة الفاطميين الذين أرسلهم المعز لدعوته هو ورجال بلاطه وموظفي دولته للدخول في طاعة الخليفة الفاطمى . وقد أخذت البيعة للمعز من معظم رجال الإخشيدية والكافورية وسائر الأولياء والكتاب[١] .

ومما يدل على اهتمام كافور بشئون الأشراف في مصر هذه الحكاية التى نرويها عن ابن سعيد[٢] الذى يقول إن كافور كان راكبا في موكبه فسقط سوطه فناوله إياه أحد الأشراف[٣]. فقبل كافورا يده وقال له « نعيت إلى نفسى فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يستشرف لها » .

ومما أثر عن كافور أن امرأة اعترضته في طريقه وصاحت به « ارحمنى يرحمك الله ! » فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفا ، فسقطت . فغضب كافور غضبا شديداً ، وأمر بقطع يد هذا الرجل ، فشفعت له المرأة . فأمر كافور أحد رجاله أن يسألها عن أهلها ونسبها . فاتضح أنها علوية . فأسف كافور على ماحدث ثم أغدق الهبات والأرزاق عليها وعلى غيرها من نساء الأشراف[٤].

* * *

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ص ٤٧

(٣) ذكر السيوطى في كتابه حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ج ٢ ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم العلوى

(٤) ابن سعيد ص ٤٨

لما تم للفاطميين فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٦٩ م) أخذ جوهر فى بث الدعوة للخليفة الفاطمى خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة . على أنه لم يوفق فى تنفيذ هذه السياسة توفيقاً تاماً . فقد كان السواد الأعظم من المصريين يعتنق المذهب السنى ، فى حين كان الشيعيون أقلية صغيرة بالنسبة إلى أهل البلاد .

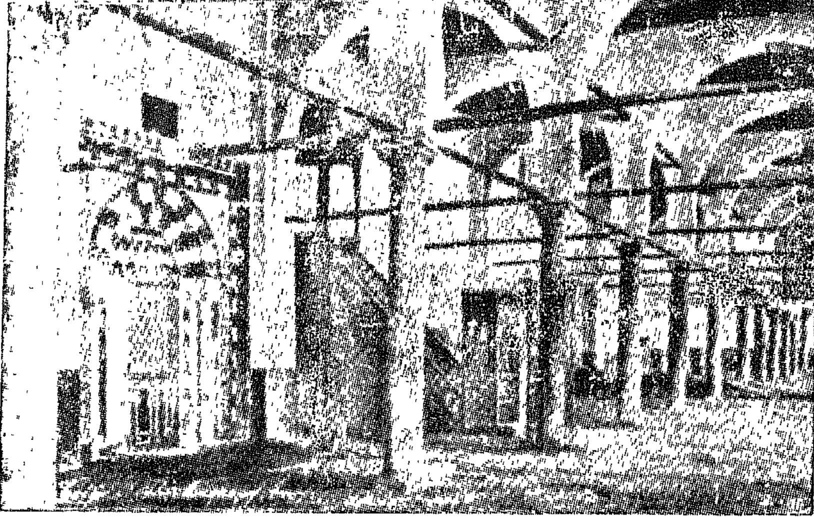
وبعد أن فرغ جوهر من وضع أساس مدينة القاهرة أمر بإلغاء الخطبة للعباسيين وإقامتها للمعز الفاطمى ، كما أمر بأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى ومنع لبس السواد شعار العباسيين ، وقرر لبس الملابس البيضاء وحرم على الناس قراءة التسبيح « سبح باسم ربك » فى صلاة الجمعة ونهى عن التكبير بعد الصلاة وكان من العادات المألوفة عند السنيين [1].

وكانت الدعوة للمذهب الفاطمى تقام فى مصر فى عهد جوهر فى المساجد، وبخاصة فى جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر الذى بناه جوهر عقب الفتح ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاع على يد داعى الدعاة ومن كان يعاونه من الدعاة .

لم يكن الغرض من بناء المساجد فى مصر مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها ، فقد كان بناؤها لأسباب سياسية أيضاً . ومن ثم أصبحت المساجد مركزاً للثقافة الإسلامية ، ومثابة لاجتماع العلماء والفقهاء ، ومكانا لإذاعة الأخبار الهامة . ولما كان الغرض الأول الذى كانت ترمى إليه سياسة الفاطميين فى مصر هو جذب الناس إليهم وإدخالهم فى حظيرة مذهبهم ، فإنهم لم يألوا جهداً فى بث تعاليم هذا المذهب فى نفوس المصريين واتخاذهم ذلك وسيلة للوصول إلى أغراضهم السياسية .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٨



جامع عمرو بن العاص

وكان فى مصر عندما فتحها الفاطميون مسجدان هما جامع عمرو فى مدينة الفسطاط مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين ، وجامع ابن طولون فى القطائع . وسرعان مابنى جوهر الجامع الأزهر فى القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة . لذلك نرى أن نتكلم عن بث الدعوة الفاطمية فى كل من هـــذه المساجد الثلاثة ، لنرى إلى أى حد نجح الفاطميون فى هذا السبيل .

خطب المعز فى جامع عمرو فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٩٦ م) بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة[١] . وكان ذكر المعز فى خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسى حادثا هاما فى تاريخ مصر .[٢] فقد شاد الخطيب فى خطبته بفضائل العلويين — الأئمة الصالحين — الذين انتهك

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٩
(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٢٠

الخارجون من السنيين حقهم(١) . وبدأ النزاع الديني بين الشيعيين والسنيين بصورة أشد عداء مما كانت عليه في الأزمان السالفة . فأخذ كل حزب في لعن الآخر والحط من قيمته . وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٣٥٨ ه دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد في الخطبة العبارة الآتية : « اللهم صل على المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين »(٢) . وفي رمضان سنة ٣٥٩ ه أمر جوهر بأن تنقش جدران جامع عمرو باللون الأخضر شعار العلويين .

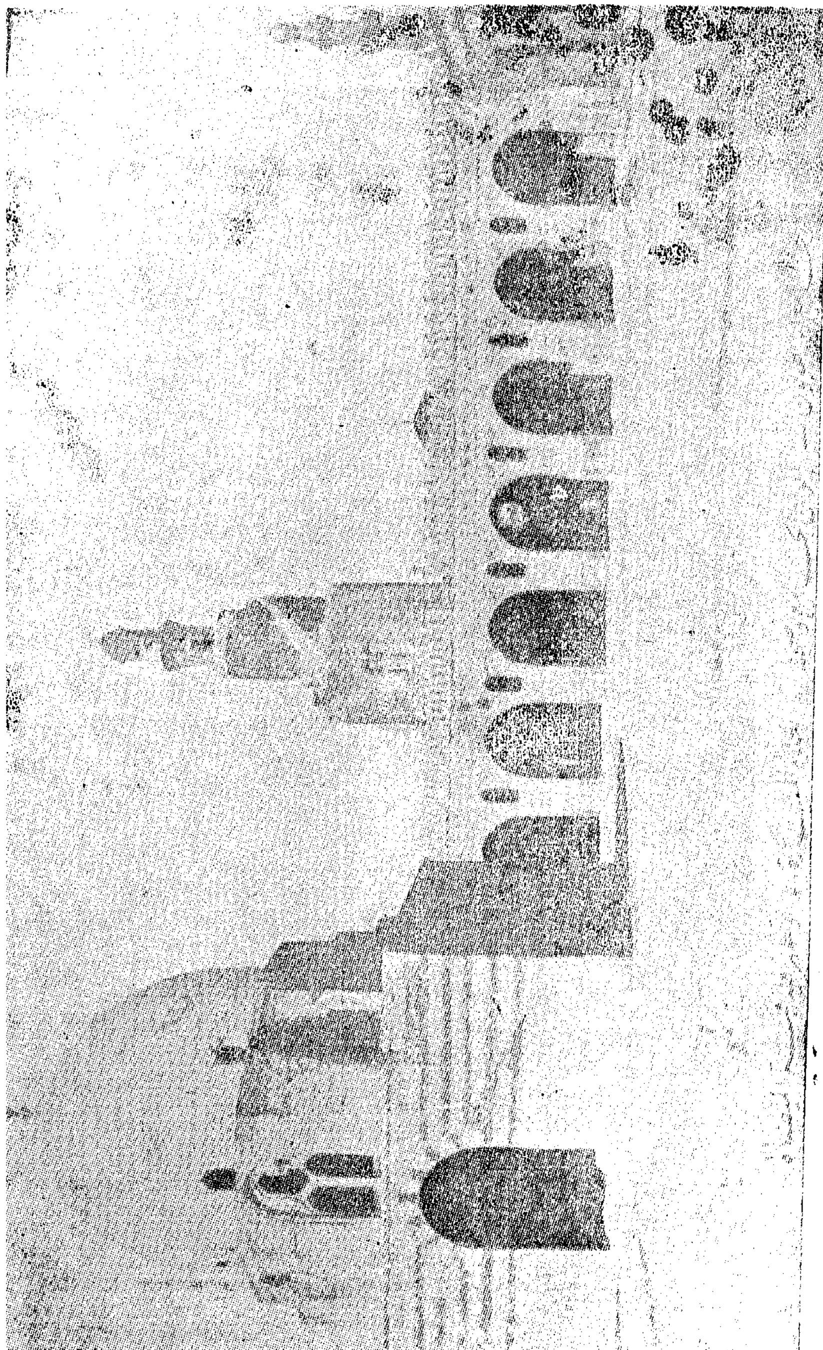
وقد تطورت الدعوة الشيعية في جامع ابن طولون في ولاية القائد جوهر في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٦ ه . فقد كان الأذان بمصر كأذان أهل المدينة وهو « الله أكبر الله أكبر » . وظل الحال على ذلك حتى قدم جوهر مصر . فلما كان يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلى جوهر في جامع ابن طولون وخطب عبد السميع بن عمر الخطيب العباسى وأذن المؤذنون « حى على خير العمل ! » ، وهى من العبارات المألوفة عند الشيعيين .

وقد انتقلت هذه العبارة من جامع ابن طولون إلى جامع العسكر ، ومنه إلى جامع عمرو . ويحدثنا المقريزى أنه حضر الصلاة في جامع ابن طولون في هذا اليوم عدد غير قليل ، وأن عبد السميع الخطيب العباسى قد شاد في خطبته

---

(١) من خطبة هبة الله بن أحمد التى ألقاها في الجامع العتيق في ٢٠ شعبان سنة ٣٥٨ ه ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٥ — ٧٦

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٧ ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٤٠٨ ، ابن خلكان ج ١ ص ١٢٠



جامع أحمد بن طولون

بذكر أهل البيت وعدد مآثرهم ، كما أنه دعا للقائد جوهر الذى لم يقر الخطيب على ذكر اسمه فى الصلاة بحجة أن مولاه المعز لم يأمر بشىء من ذلك[1] .

أما الجامع الأزهر فقد جعله الفاطميون مركزاً لبث عقائد مذهبهم واجتماع أشياعهم . وقد أقيمت الصلاة فيه لأول مرة فى ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ ، ولم يزد جوهر شيئاً جديداً فى الأذان والخطبة فى هذا الجامع على ما أدخله عليهما فى جامعى عمرو وابن طولون . واستمرت الحال كذلك حتى جاء المعز ، فتطورت الدعوة الفاطمية فى الأزهر تطوراً عظيما . فقد أمر الخليفة الفاطمى بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهى «خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبى طالب»[2] . وفى المحرم سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة الجمعة فى مصلى القاهرة التى أنشأها جوهر فى رمضان سنة ٣٥٨ هـ خارج باب النصر . وأدخلت على الدعوة الشيعية مظاهر جديدة فى الجامع الأزهر . فقد كان السنيون يكبرون على الميت أربعا فقط ، فأمر المعز بالتكبير على الميت على حسب مكانته مقتفياً فى ذلك أثر على بن طالب . ولما مات أحد بنى عم المعز صلى عليه هذا الخليفة فى الجامع الأزهر وكبر عليه سبعاً وكبر على ميت آخر خمساً[3] .

ولما وصل المعز إلى مصر وصرف جوهر عن ولايتها قام المعز بنفسه بنشر هذه الدعوة ، ثم تولاها الخلفاء الفاطميون من بعده . وقد استعان الفاطميون فى نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدمجونهم فى جيوشهم لبث الدعاية باسمهم . وكانت الدعوة للمذهب الفاطمى ، بعد الفتح ، تذاع على يد داعى الدعاة ، وكان من كبار الموظفين . وقد خصص له المعز مكاناً فى قصره

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٠
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٣

ولا يفوتنا أن من أهم أغراض السياسة التى انتهجها جوهر فى مصر هى نشر الدعوة الفاطمية باسم مولاه المعز . ولسنا نشك فى أن جوهراً قد استعان بطائفة من الدعاة وأنه قد عين لهم رئيسا هو داعى الدعاة ، كان مركزه الجامع الأزهر . ولا غرو فإن الفاطميين لم يهتموا اهتماما كبيراً ببث دعوتهم فى المساجد الأخرى كجامع عمرو وجامع ابن طولون التى يؤمهما السنيون . ولما بنى جوهر القصر لمولاه المعز اتخذه المعز ليكون مقراً لداعى الدعاة .

وكان يساعد داعى الدعاة فى بث التعاليم الفاطمية إثنا عشر نقيبا ، كما كان له نواب ينوبون عنه فى سائر البلاد المصرية ، ويحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر ، ويقدمون إليه فى يومى الاثنين والخميس محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعى ، فيعرضها الداعى بنفسه قبل إلقائها على الخليفة فيقر مايقبله منها ويذيله بامضائه ، ثم يردها الداعى إليهم .

وكان داعى الدعاة يعقد المجالس فى مكانين كبيرين من قصر الخليفة . فكان يجلس على كرسى الدعوة فى الديوان الكبير ، ويبدأ بمحاضرة الرجال ، ثم يعقد للنساء مجلسا خاصا يعرف بمجلس الداعى . وفى هذين المكانين كان يحاضر الناس ويلقنهم عقائد المذهب الشيعى . فإذا مافرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضرته على الحاضرين ساروا إليه لتقبيل يده ، فيمسح على رءوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة . وكان داعى الدعاة يجمع النجوى[1] من الإسماعيلية أثناء انعقاد هذه المجالس . وكان كل من يدفع من سراة الإسماعيلية ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى دينار يعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة فيها « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » ، فيدخرها ويفخر بها .

وكان داعى الدعاة يواظب على الجلوس فى القصر لإلقاء محاضراته . وكان يفرد لآل على مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلسا ، وللعامة والنازحين إلى

(١) النجوى : الصدقة وهى عبارة عن ثلاثة دراهم وثلث .

مصر من البلدان الأجنبية مجلسا ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلسا ، كما كان النساء يحضرن فى الجامع الأزهر(١) .

وكان فى قصر الخليفة مجموعة عظيمة من الكتب ، الغرض منها نشر عقائد الفاطميين وتلقينها للناس . ولا غرو فقد عنى الفاطميون عناية خاصة بازدياد عدد الكتب فى المذهب الشيعى ، حتى كانت مكتبة القصر فى القاهرة تنافس غيرها من المكاتب فى العالم الإسلامى(٢) .

ولم تقتصر أعمال للفاطميين فى نشر دعوتهم على الإشادة بمحامد آل البيت ، بل عملوا أيضاً على الحط من شأن الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم شأن الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والصحابة الذين لم ينصروا عليا ولم يقولوا بأحقيته فى الخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . بل اعتبروا هؤلاء خارجين على الدين والدولة . ومن ثم نرى فضائل على وأولاده من بعده تنقش على السكة وعلى جدران المساجد فى مصر وفى البلاد التى كانت تحت سلطانها . كما نرى الخطباء فى عهد الفاطميين يلعنون الصحابة على كافة المنابر حتى لقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمى ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب . وليس بعيداً أن تكون الرغبة فى الحصول على مناصب الدولة هى التى دفعت بفريق من السنيين إلى التحول إلى المذهب الشيعى .

النظام الإدارى فى مصر فى ولاية جوهر :

كان من سياسة جوهر أن يحل المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين فى المناصب الهامة . ولا غرو فقد رأى أنه من الطبيعى أن تؤول أكثر مناصب

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٣١

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٤٦

الدولة إلى أنصاره من المغاربة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية . وكما حدث ذلك فى الدولة العباسية ، فقد كانت المناصب الهامة فى الدولة تسند إلى الخراسانيين لما بذلوه من المساعدة فى إقامة دولتهم . وقد بدأ جوهر فى تنفيذ سياسته بأن عمل على محو كل أثر من آثار المذهب السنى سواء كان ذلك من الوجهة الدينية أو المدنية ، ناظرا إلى معتنق هذا المذهب نظرة الخارجين على الدين .

وكان جوهر ينوب عن الخليفة المعز فى إدارة شئون هذه البلاد . وكان فى سياسته شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . فقد أفسح المجال أمام المغاربة ، لكى يستطيعوا الإلمام بالنظم الإدارية التى كانت تسير عليها الحكومة المصرية فى عهد الإخشيديين . ويوضح لنا المقريزى هذه السياسة بقوله « إن جوهراً لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه »[1] .

وقد رأى جوهر أن ينفذ سياسته تدريجيا ، حتى لا يثير شعور السنيين الذين كانت إليهم إدارة أمور الدولة ، فتتعطل الأعمال الإدارية ويضطرب حبل الأمن والنظام فى البلاد . وقد نجح جوهر فى سياسته ، نجاحا كان من أثره أن أصبحت أمور الدولة على اختلافها فى أيدى الشيعيين فى سنة ٣٧٩ ﻫ أى بعد الفتح بنحو عشرين سنة . ولم يبق فى أيدى السنيين إلا القليل من مناصب الدولة مما ليس له أهمية أو خطر . وقد حتم جوهر على جميع موظفى الدولة أن يسيروا وفق أحكام المذهب الشيعى ، مذهب الدولة الحاكمة وكان الفاطميون يعاقبون بالعزل كل من يعرف بالهوادة فى تنفيذ هذه الأحكام . وبذلك انتشر المذهب الشيعى فى مصر بين الموظفى السنيين خشية الاضطهاد أو رغبة فى الوصول إلى المناصب العالية فى الدولة ، وحذا حذوهم فى ذلك غير المسلمين من النصارى واليهود .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٨

وفى أوائل سنة ٣٦٣ هـ تغيرت إدارة المناصب فى مصر تغيراً عظيماً . فقد كانت دار الشرطة — بعد أن فتح العرب مصر — فى مدينة الفسطاط ، فلما تأسست مدينة العسكر بنيت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على الأولى دار الشرطة السفلى ، فلما استولى الفاطميون على مصر جعلوا مقر الشرطة العليا فى القاهرة [١]. وقد ذكر ابن دقماق[٢] أن صاحب الشرطة قد توفى فى نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر مصر .فأسندت إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى فى الفسطاط وتقلدها عروبة ابن إبراهيم وشبل المعرضى[٣] . وقد صرف المعز بنى عبد السميع عن الخطابة بعد أن تقلدوها أربعاً وستين سنة ، وأسندها إلى جعفر بن الحسن ابن الحسينى فى جامع عمرو ، كما أسندت إلى أخيه فى الجامع الأزهر فى سنة ٣٧٩ هـ[٤] . وتقلد بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ، وهؤلاء كلهم من المغاربة الشيعيين .

وكانت أهم الأعمال الإدارية التى تقلدها الشيعيون هى جباية الخراج ، والوزارة ، والقضاة ، والحسبة .

كان أول ما اهتم به جوهر عقب الفتح هو العمل على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التى انتابت البلاد. فقد أنشأ مخزناً عاماً للحبوب عهد برقابته إلى المحتسب. وكانت مهمته منع احتكار الحبوب .

كان يتولى جباية الخراج فى مصر حين فتحها جوهر ، على بن يحيى بن العرمرم . فأقره جوهر فى منصبه . ولم يكد يمضى شهر على ذلك حتى أشرك

(١) ابن ميسر ص ٤٥

(٢) جـ ٤ ص ١١ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٥

(٤) الخطط جـ ٢ ص ٩٩

معه رجاء بن صولاب . ويغلب على الظن أن ابن صولاب هذا كان مغربيا ، وذلك تبعا للسياسة التى سار عليها جوهر من إسناد المناصب المالية للمتشيعين من المغاربة وإحلالهم محل الموظفين السنيين . إلا أن موظفى الخراج لم يلبثوا أن أصبحوا تحت إشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، فصرفا ابن المرمرم وابن صولاب عن مناصبهما وجعلا جباية الخراج قسمين : أحدهما فى يد على بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وثانيهما فى يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذبارى .

وقد ذكر المقريزى (١) أن جوهرا جبى خراج مصر فى السنة الأولى من ولايته ٣٫٤٠٠٫٠٠٠ دينار . وكان هذا المقدار قد نقص كثيرا فى أواخر أيام كافور حين انتاب مصر القحط وعمها الوباء على أثر انخفاض النيل مدة تسع سنوات (٣٥١ — ٣٦٠ هـ) . ولم تنته المجاعة إلا بعد شهر اكتوبر سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٦٩ م) أى فى أوائل دخول الشتاء . ومن ثم بدأت البلاد تسترد نشاطها .

وقد عهد المعز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم ، فجمعت أقسامه المختلفة فى مكان واحد . كما عمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التى كانت تفرض على كل منها ، فوضعا نظاما دقيقاً لجباية الضرائب على اختلاف أنواعها . وقد اهتمت الحكومة بتحصيل ما تأخر منها ، كما عنيت بدراسة الشكايات التى كانت تقدم اليها فيما يختص بجباية الضرائب . وسلكت فى تنفيذ النظام الجديد سبيل الحزم ، فحمت دافعى الضرائب من اشتطاط عمال الجباية بهم . فكان من أثر هذه الخطة الحكيمة أن زادت موارد البلاد زيادة عظيمة .

ويذكر ابن ميسر أنه قد بلغ ما كان يستخرج من الفسطاط فى يوم واحد

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٩٩

مقدار يتراوح بين ٥٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ دينار ، وأنه قد استخرج من تنيس ودمياط والأشمونين فى يوم واحد أكثر من ٢٢٠٠٠٠ دينار . وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة ، إذ لو كان المتوسط ١٩٠٠٠٠ دينار فى اليوم لبلغ فى السنة ٣٦ مليوناً من الدنانير[1] . وهذا شىء كثير لم تبلغه جباية مصر فى عهد الفاطميين . والذى يغلب على الظن أن هذه الآلاف إنما هى دراهم لا دنانير .

* * *

وكان يتقلد منصب الوزارة ، عند فتح مصر على يد جوهر ، الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، الذى تولى هذا المنصب مدة طويلة فى عهد العباسيين والإخشيديين . وكان سنياً غالياً . وقد أبى جوهر فى بادىء الأمر أن يلقبه بالوزير وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب ، وقال «ما كان وزير خليفة»[2] . إلا أنه قد أقره فى منصبه ، متمشيا فى ذلك مع سياسته العامة فى هذه البلاد . ولم يبق لابن الفرات من منصبه إلا الاسم فقط ، فقد عين جوهر خادماً يبيت مع جعفر فى داره ويلازمه فى غدواته وروحاته ويراقبه فى حـــركاته وسكناته[3] . ومن ثم ضعف نفوذ هذا الوزير إلى حد كبير . ويحدثنا ياقوت أن جعفر بن الفرات اعتذر عن البقاء فى دست الوزارة بعد وصول المعز إلى مصر[4] .

لما علم جعفر بقرب وصول المعز إلى مصر أبى أن يستقبله فى الأسكندرية

(١) ابن ميسر ص ٤٦

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٠ ، ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٥

(٤) إرشاد الأديب : ج ٢ ص ٤١٢

فرأى كبار السنيين فى ذلك إحراجا لمركزهم، وفرصة يستغلها المعز لاضطهادهم وأخذهم بالشدة والعنف . ومن ثم طلبوا إلى جعفر أن يستقبل الخليفة حتى لا يتعرضوا لحنقه وسخطه . فأذعن جعفر لطلبهم ، وخرج لاستقبال المعز فى الاسكندرية .

ولسنا نشك فى أن المعز قد اتصل بمسامعه ما كان من أمر هذا الوزير وإبائه الذهاب لاستقباله فأسرها فى نفسه . وقد قيل إن المعز سأل ابن الفرات «أحج الشيخ ؟» فقال : «نعم» . فقال الخليفة « وزرت قبر الشيخين (أبو بكر وعمر)؟» ولما رأى جعفر بذكائه ودهائه أن المعز قصد بهذا السؤال إحراجه والإيقاع به ، أجابه على الفور : « شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ، السلام عليك يا ولى عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ! » . وكان من اثر هذا الجواب الحكيم أن عرض المعز على جعفر منصب الوزارة ، فاعتذر عن قبوله . فطلب إليه المعز البقاء فى مصر بعد اعتزاله منصبه حتى يكون على مقربة منه لاستشارته فى الأمور الهامة التى تعرض له .

وتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين . وقد عهد إليهما المعز بإدارة كافة شئون الدولة الحربية والمدنية ، كما قلدهما فى ١٤ المحرم سنة ٣٦٣ هـ الخراج والحسبة والسواحل والأعشار (١) والجوالى (٢) والأحباس (٣) والمواريث والشرطتين (٤) . ولا شك فى أن إسناد هذه الأعمال

---

(١) الأعشار : فرضها عمر بن الخطاب بادىء الأمر على التجار غير المسلمين .

(٢) الجوالى : هى عبارة عن اختيار الأحسن من كل شىء ، سواء من الممتلكات أو الشاة .

(٣) الأحباس : هى كل مايوقف على جهة من جهات الخير ، ويصرف مايتحصل من أموالها ، حسبما أراده الواقف .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٤٠

الإدارية الكبرى إليهما قد قوى نفوذهما وأثر على السلطة التى كان يتمتع بها جوهر من قبل. على أن ابن كاس قد أولى ابن الفرات ثقته التامة وعول عليه فى محاسبة العمال. فكان ابن الفرات يختلف إليه ويتناول الطعام عنده. وتوثقت أواصر الصداقة بينهما، ولاسيما عند ماتزوج أبو العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات بابنة الوزير ابن كاس.

ولم تنته حياة هذا الرجل العظيم بعزله من منصبه فى عهد المعز، فقد تولى الوزارة فى عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) سنة كاملة [١]. كما تقلد الخراج فى سنة ٣٨٢ هـ بعد أن اتهم العزيز وزيره أبا الحسين بن على بن عمر العداس بتبديد أموال الدولة وقبض عليه. وفى ربيع الأول سنة ٣٨٣ هـ أسندت الوزارة إليه ثانية فظل فيها سنة واحدة وتوفى هذا الوزير سنة ٣٩١ [٢] هـ بعد أن تقلد الوزارة فى عهد العباسيين والإخشيديين والفاطميين.

* * *

كان قاضى القضاة فى مصر، عند ما دخلها الفاتحون بقيادة جوهر، أبو الطاهر، وهو من قضاة المصريين السنيين، وكان قد تولى منصبه هذا منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ. فرأى جوهر أن عزله وإحلاله قاض من الشيعة محله قد يجر إلى غضب المصريين وسخطهم. فأقره فى منصبه لغرض سياسى فحسب، وعمل فى الوقت نفسه على إضعاف نفوذه إلى حد بعيد.

ولما وصل المعز إلى مصر خف الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيهم وقبلوا الأرض بين يديه عدا أبا الطاهر فانه ظل راكباً حتى قرب منه المعز

---

(١) المقريزى: الخطط ج ٢ ص ٨٤

(٢) ابن خلكان: ج ٢ ١٣٩

فترجل وسلم عليه ولم يقبل الأرض ، فلفت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجابه عن الرجل الذى خالف الناس كلهم ، فعلم منه أنه قاضى مصر . ولما لام الناس أبا الطاهر على ذلك ذكر قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولاللقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)[١] .

أقر المعز أبا الطاهر فى منصبه جريا على نفس السياسة التى اتبعها جوهر منذ أن فتح هذه البلاد . وليس بعيدا أن يكون المعز قد أقر أبا الطاهر فى منصب القضاء لما رآه من ذكائه وحضور بديهته . فقد ذكر المقريزى أن المعز حين قدم مصر سأل أبا طاهر : « كم رأيت من خليفة ؟ » فأجابه على الفور « مارأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه » . فاستحسن المعز ذلك منه ، مع علمه بأن أبا الطاهر رأى المعتضد والمكتفى والمقتدر وغيرهم من الخلفاء العباسيين .

إلا أن سلطان أبى الطاهر قد اضمحل وألزمه المعز أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعى[٢] . بل زاد على ذلك فاشرك معه أبا سعيد بن أبى ثوبان المغربى فى شوال سنة ٣٦٢ هـ[٣] وأسند اليه النظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة . وما لبثت سلطته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ، ثم اشتد نفوذه حتى آل إليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والاسكندرية[٤] .

وفى سنة ٣٦٣ عين المعز قاضياً آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة

---

(١) الكندى ص ٣٨٧

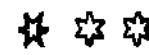
(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٩٠ نقلا عن المقفى الكبير للمقريزى بليدن .

(٣) الكندى ص ٥٨٤

(٤) ابن ميسر ص ٤٤ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٢

النعمان المغربى ، فقاسم أبا الطاهر القضاء . فكان يجلس ابن النعمان للقضاء في جامع عمرو ، وأبو الطاهر فى الجامع الأزهر . وظلت الحال كذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء عامة فى شهر صفر سنة ٣٦٦ھ على أثر استقالة أبي الطاهر لشيخوخته وضعفه . وقد بدا ذلك الضعف عليه على أثر إصابته بفالج أبطل شقه مما جعل العزيز يقول بعد أن رآه على هذه الحالة « ما بقى إلا أن يقددوه[1] » ، وأعلن تقلد على بن النعمان منصب القضاء على منبر الجامع العتيق .

وقد ظل أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨ ھ . فقد تقلد الحسين بن النعمان القضاء فى مصر ومايتبعها من الأعمال فى شهر صفر سنة ٣٩٣ ھ وأسندت مقاليد الدعوة لقاضى القضاة للمرة الأولى ، فغدا يطلق عليه « قاضى القضاة وداعى الدعاة » .



كان المحتسب إلى أول عهد الفاطميين سنيا ، فأقاله جوهر على أثر الفتح وعين مكانه رجلا من المغاربة ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٣٥٩ ھ . وقد ثار الصيارفة على المحتسب الجديد ، لأنه أنب جماعة منهم ، فاحتج الباقون وصاحوا : « معاوية خال على بن أبى طالب » . وذكر المقريزى[2] ان الصيارفة قد شغبوا عند ماعلموا عزم جوهر على حرق رحبتهم ، ولكنه عدل عن ذلك خوفا على الجامع . ولما توفى المحتسب المغربى تولى الحسبة سليمان ابن عشرة الذى حدث هذا الشغب فى ولايته الثانية على الخراج .

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين . فكانت أعمال المحتسب

(١) الكندى: ص ٥٨٥

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٧

واسطة بين القاضى وصاحب النظر فى المظالم . وكان ينتخب من أعيان المسلمين . ولا غرو فقد كان منصب المحتسب من المناصب الدينية الهامة . فكان إليه الإشراف على الأسواق ، والمحافظة على الآداب ، واستيفاء الديون ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، وكان لها دار خاصة تعاير فيها (١) . فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، حيث يعايرها ، فإن وجد فيها نقصاً أبادها وألزم صاحبها بشراء غيرها . ثم تساهل معهم ، فكان يلزم من وجد فى ميزانه خللا أو فى صنجه نقصا بإصلاحه . وقد ظلت هذا الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الأيوبية (٢) .

وكان المحتسب نواب ينوبون عنه فى القيام بهذه الأعمال فى مصر وغيرها من البلدان . وكان هؤلاء النواب يطوفون على أرباب الحرف ، ويلاحظون الطرق العامة ، ويفتشون قدور الطعام ، ويختمون اللحوم ، ويباشرون محال الجزارة ، ويلزمون رؤساء السفن بألا يحملوا أكثر مما يجب حمله ، ويأمرون السقائين بتغطية قربهم ومراعاه عيارها . ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الأطفال ضربا مبرحاً ، ويحذرون معلمى السباحة من التغرير بالصغار .

وكان المحتسب يجلس للفصل بين الناس فى جامعى عمرو والأزهر . وقد اتسعت سلطته وزاد خطرها ، حتى كان لزاماً على رجال الشرطة القيام بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتباً شهريا قدره ثلاثون ديناراً .

***

---

(١) الماوردى: الأحكام السلطانية : ص ٢٢٧ — ٢٣٠

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ . ابن خلدون : مقدمة ص ٢٢٥ — ٢٢٦

وقد ثار المصريون لما ارتكبه المغاربة من أعمال العنف والشدة ، وما كان منهم من نهب بيوت الأهلين وإجلائهم عنها. إلا أن جوهراً قد وضع بحسن سياسته حداً لما أتاه هؤلاء المغاربة من الفوضى وما أثاروه من القلاقل فأمر بقتل جماعة منهم . ولاشك فى أن تنكيل جوهر بهؤلاء المشاغبين والضرب على أيديهم كان مظهراً من مظاهر سياسته الحكيمة . وكان غرضه من ذلك أن يوقف المغاربة عند حدهم ، حتى لا تتجدد الثورات التى كان يقوم بها الأهلون دفاعاً عن أموالهم وأرواحهم .

من هنا نرى أن جوهراً قد وضع أساساً صالحاً للسياسة التى جرى عليها الفاطميون فى مصر ، فقد أخذ بالشدة والبطش كل من حاول العبث بالنظام . وقد سار المعز على مثال جوهر حين عاد المغاربة سيرتهم الأولى فى سنة ٣٦٣هـ حيث احتلوا دور المصريين فى عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً للنظر فى أحوالهم .(١) وبذلك تم انفصال المغاربة أنصار الدولة الفاطمية الشيعية عن المصريين السنيين ، وانطفأت نيران الفتن التى طالما كانت تقوم بين الفريقين بسبب اختلاطهم بعضهم ببعض . ولم نسمع بعد ذلك عن هذه الفتن شيئا ، اللهم إلا فى الاحتفالات الدينية ، كالاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، ذكرى اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على - رضى الله عنه - بكربلاء(٢) .

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٦

(٢) المقريزى : نفس المصدر ص ٨٧- ٩٤ ابن ميسر ص ٤٥

الباب الرابع

منشآت جوهر فى مصر

تأسيس مدينة القاهرة :

كان من أهم ما يرمى إليه ولاة المسلمين فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية التى فتحوها، أن يؤسسوا قاعدة لملكهم تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سن هذه السنة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذى أسس الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن على العباسى فأسس هو وأبو عون مدينة العسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر فبنى مدينة القاهرة .

تعتبر مدينة الفسطاط أقدم هذه العواصم ، فقد أسسها عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر وأجلى الروم عنها (٢٠ هـ = ٦٤٠ م) . وكان عمرو يريد أن يتخذ الإسكندرية ، وكانت قاعدة هذه البلاد منذ أيام الإسكندر المقدونى (٣٣٠ ق م) ، حاضرة لولايته الجديدة ، إذ كانت عامرة آهلة بالسكان ، وأرسل بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فسأل الخليفة رسول عمرو : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ » ، قال « نعم ياأمير المؤمنين إذا جرى النيل » . فكتب إلى عمرو « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حين أقدم اليكم قدمت » . وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الإسكندرية .

ولا غرو فقد كان عمر بعيد النظر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ،

ومن ثم لم تعد الاسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة للديار المصرية . فلم يكن بد إذا من أن تتخذ العاصمة الجديدة إما على البحر الأحمر وإما في مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب . ولما كان موضع الفسطاط يقع على الطريق إلى بلاد العرب ، وفي مكان يسهل منه الإشراف على قسمي الديار المصرية شمالا وجنوبا ، اتخذه عمرو حاضرة لولايته .

تقع الفسطاط في ذلك الفضاء المتسع الذي عسكر فيه عمرو بجنده عند حصاره حصن بابليون ، والذي لايبعد كثيرا عن منف عاصمة مصر القديمة ، وكانت فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون[١] .

وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم : لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الأسكندرية لقتال الروم أمر برفع فسطاطه[٢] فوجد أن يمامة قد باضت فيه ، فأمر عمر بإبقائه كما هو . فلما رجع المسلمون من الأسكندرية سألوا عمرا عن المكان الذي ينزلون فيه فقال : « الفسطاط » إشارة إلى فسطاطه الذي تركه لتبيض اليمامة فيه . وبذلك سميت المدينة كلها « الفسطاط »[٣] .

شرع عمرو بعد أن فتح مدينة الأسكندرية ونزل بجنده بجوار حصن بابليون في تأسيس مدينة الفسطاط ، فاختط أول جامع بني في مصر ، فسمي الجامع العتيق أو تاج الجوامع ، ثم أطلق عليه بعد ذلك جامع عمرو ، وهو الاسم الذي لايزال يعرف به حتى اليوم[٤] ثم اختطت القبائل العربية دورها

(١) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٢٨٩

(٢) خيمته

(٣) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٢٩٦ . وقد قيل في تسمية الفسطاط أقوال أخرى ليس هنا مجال بحثها .

(٤) Lane—Poole : The Story of Cairo, P 24

بالقرب من ذلك المسجد . وهكذا أنشئت الفسطاط وبنيت فيها المساكن ونزل بها الناس ، واتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة الديار المصرية ؛ كما أصبحت من أمهات العواصم الإسلامية[١] .

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين وولى صالح بن على العباسى ولاية مصر ، رأى أن الفسطاط قد ضاقت بعسكره فأسس مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) فى الفضاء الواقع فى الشمال الشرقى لمدينة الفسطاط ، واتخذها حاضرة له . ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم العسكر ، وكانت بالنسبة إلى الفسطاط أشبه بفرساى بالنسبة إلى باريس[٢] . وكان موضعها يعرف فى صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، وهو المكان الذى نزلت فيه ثلاث قبائل من العرب[٣] عقب الفتح الإسلامى . وقد هجرتها هذه القبائل منذ ذلك الحين فأصبح مكانها قفرا . وفى ذلك المكان أنشئت العاصمة الجديدة ، وهى تمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر الذى بنى فوقه جامع ابن طولون .

---

(١) ظلت الفسطاط مركزا للحركة التجارية عامرة بالدور آهلة بالسكان حتى دخل مصر عمورى Amalaric ملك بيت المقدس فى سنة ٥٦٣ هـ (سنة ١١٦٨ م) فلم يستطع شاور وزير الخليفة الفاطمى العاضد الدفاع عنها : لأن المدينة لم تكن على عهدها الأول من القوة ، أضف إلى ذلك خوفه من دخول الفرنجة فيها . فأمر باخلائها وحرقها . ويقول المقريزى : « وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظراً مهولا . فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما .. ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان (تلال) مصر » . ولم يتخلف من بقايا تلك المدينة البائدة إلا جامع عمرو وقصر الشمع . (الخطط : ج ١ ص ٣٣٨ — ٣٣٩)

(٢) Lane—Poole : The Story of Cairo p. 65

(٣) بنى يشكر ، بنى روبيل ، بنى الأزرق (المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٤)

وهناك أقام العباسيون دورهم ، واتخذوا مساكنهم . ثم أقام صالح بن على دار الإمارة وثكنات الجنود وسط هذه العاصمة ، كما اتخذ المنصور من بعده قصر الذهب وسط مدينة بغداد ، حتى لايكون أحد أبعد إليه من الآخر(١) . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أسس الفضل بن صالح أحد ولاة العباسيين مسجد العسكر بجوار دار الإمارة فأصبح من المساجد الجامعة بالديار المصرية . ثم سمح للناس بالبناء حول العسكر ، فكثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وأصبحت مدينة كبيرة بها الشوارع والمساجد والدور والبساتين والأسواق . وهكذا أصبحت العسكر مقر الإمارة والإدارة والشرطة (١٣٢ - ٢٥٤ هـ)(٢) .

ولكن أهمية العسكر قد قلت كثيرا منذ بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع ، فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر . فأصبحت هذه المدينة كأن لم تغن بالأمس(٣) .

رأى أحمد بن طولون أن مدينة العسكر قد ضاقت بجنده وخدمه وعبيده ، فسار على سنة عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط ، وصالح بن على العباسى مؤسس العسكر ، فى تخطيط حاضرة جديدة تسع جنده وتوفر لهم مرافق الحياة ، فاختار فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) المنطقة الواقعة شمالى الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة بالعسكر لتأسيس الحاضرة

---

(١) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 91

(٢) ظل أمراء مصر يقيمون فى دار الإمارة فى العسكر ، حتى بنى جوهر الصقلى قائد المعز ، مدينة القاهرة .

(٣) تخربت مدينة العسكر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى على أثر المجاعة التى حدثت فى ذلك الحين . فإن بدر الجمالى لما حضر إلى مصر وأخذ فى تعمير القاهرة من جديد نقل اليها ما كان بالعسكر والقطائع من أنقاض المساكن ، حتى صار مكان هاتين العاصمتين موحشاً مقفراً . ولم يبق عامراً من العسكر سوى جبل يشكر الذى بنى عليه جامع ابن طولون .

الجديدة التي سميت (القطائع) . ويقول المقريزى[1] إن مدينة القطائع كانت تمتد من قبة الهواء التي بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ، ومن الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين . وقد قدرت مساحتها بميل فى ميل[2] .

اتخذ أحمد بن طولون تحت موقع القلعة دارا يقيم فيها تحيط بها حديقة غناء ، ثم أسس مسجده المشهور المعروف باسمه ، وأقام بجواره دار الإمارة، وجعل فيما بين المسجد والقصر ميداناً فسيحا كان يلعب فيه ابن طولون وجنده بالصولجة[3] ، وقد بلغ من الاتساع مبلغا عظيما حتى سمى القصر كله بالميدان . ثم اختط كبار رجال الدولة ابن طولون وقواده وغلمانه دورهم حول ذلك الميدان، واتخذت كل طائفة منهم قطيعة(٤) خاصة بها ، كما جعل للطوائف المختلفة وكذلك الحرف والصناعات والتجار قطائع خاصة . وكانت كل قطيعة تسمى باسم الطائفة التي تسكنها ، فسميت المدينة كلها « بالقطائع » . ثم أخذ الناس فى البناء ، فعمرت المدينة ، وأقيمت فيها الدور الفخمة والمساجد والحمامات حتى اتصلت أبنيتها بالفسطاط . وجاء بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجملها « وأقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر »[5] .

---

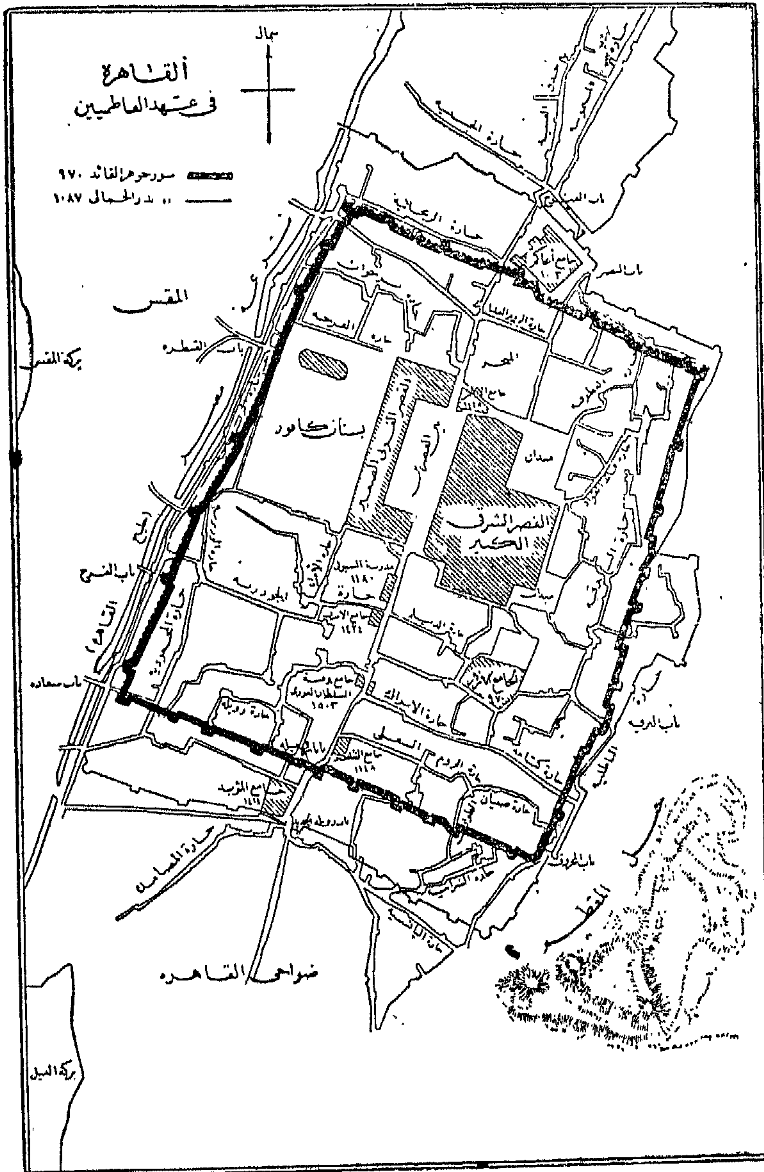
(١) الخطط ج ١ ص ٣١٣ ، ابن دقاق : ج٤ ص ١٢١ و ١٢٢ .

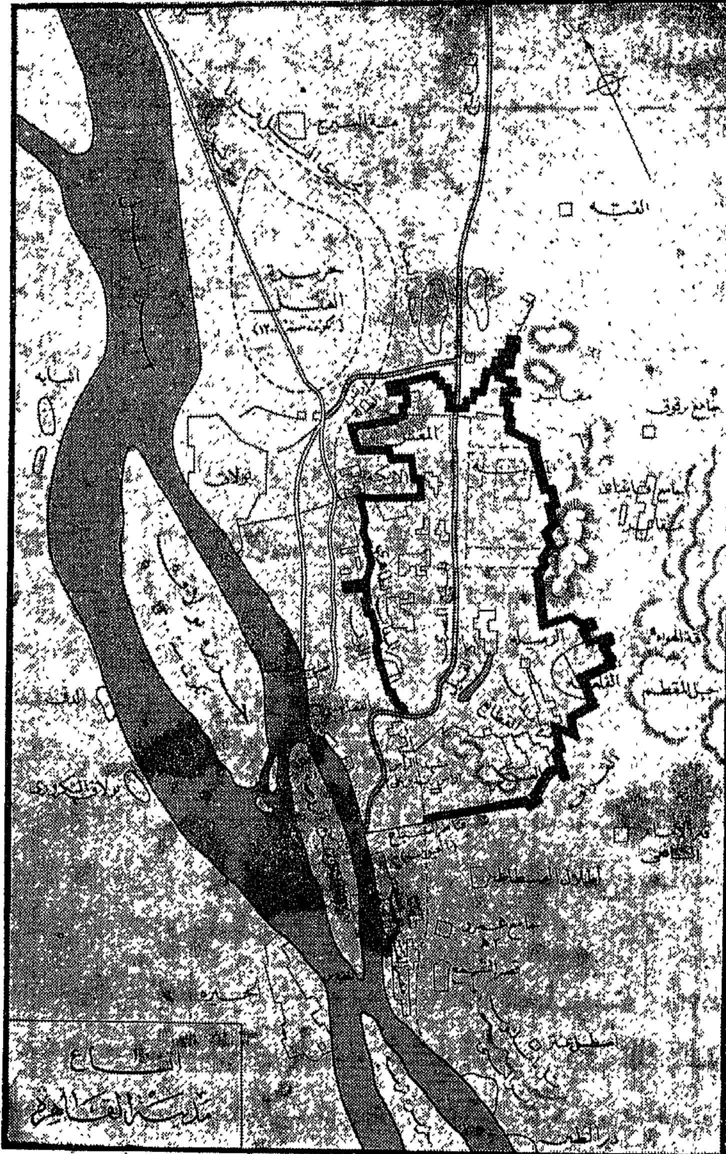
(٢) ابن دقاق ج ٤ ص ١٢١ . ويقال إن الذى قدر هذه المساحة هو ابن سعيد الاندلسى الذى زار مصر أيام الملك الصالح أيوب .
والميل ثلث الفرسخ ويقدر بثلاثة أو أربعة آلاف ذراع .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٥ . والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز والفرنسيين باسم بولو « Polo » .

(٤) القطيعة : جزء من الأرض .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٦ .


القاهرة
فى عهد الفاطميين
شمال
سور جوهر القائد ٩٧٠
،، بدر الجمالى ١٠٨٧
المقس
بستان كافور
القصر الشرقى الكبير
ميدان
باب الفتوح
باب النصر
باب زويلة
الجامع الأزهر
جامع المؤيد
حارة الروم
حارة الباطلية
حارة زويلة
الجودرية
حارة برجوان
ضواحى القاهرة
بركة الفيل
بركة المقس
باب سعادة
باب القنطرة
المقطم


مدينة القاهرة
جبل المقطم
جامع برقوق

ولما توفى خمارويه (سنة ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) أخذت الدولة الطولونية فى الضعف والانحلال . فبعث الخليفة المكتفى القائد العباسى المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر . فهزم الأسطول المصرى وفر هارون بن خمارويه إلى مدينة العباسة[1] ، حيث قتله عماه شيبان وعدى ، فلم يرض الجند عن عملهما ، ورفضوا إقرار تعيين شيبان وكاتبوا محمد بن سليمان . فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين (سنة ٢٩٢ هـ و ٩٠٤ م) وأشعل فيها النار . فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة الزاهرة أثراً بعد عين[2] .

وهكذا زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع وأضحت أطلالا دارسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . ومن ثم عادت الفسطاط مقر الإمارة ومركز الإدارة والجند ، فزادت مبانيها وعمرت أرجاؤها . وظلت الحال على ذلك حتى فتح مصر جوهر الصقلى قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمى وأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

***

تعتبر القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية . وقد تأسست سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) على أثر دخول جيوش المعز لدين الله الفاطمى بقيادة جوهر وقضائها على الدولة الإخشيدية .

دخل جوهر الصقلى مدينة الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (١٧ يولية سنة ٩٦٩ م) وعسكر فى الفضاء الواقع شمالها . وفى تلك الليلة نفسها وضع جوهر أساس المدينة التى عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز[3] وقد اختطت كل قبيلة من

---

(١) العباسة : بليدة أول مايلقى القاصد لمصر من الشام .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٣٢ ، ابن دقماق : جـ ٤ ص ١٢١ .

(٣) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 118.

Migeon : Art Musulman, tome I. p. 44

البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين : إحداهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر [١] .

أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقراً للملك الفاطميين ومركز لنشر دعوتهم الدينية ، ويتخذها حصنا منيعا لصد هجمات القرامطة الذين بدأوا يهددون حدود مصر الشمالية . أضف إلى ذلك ما كان من زحفهم على بلاد الشام وكانت تابعة لمصر إذ ذاك واستيلائهم على دمشق . ومن ثم لم ير الفاطميون بدا من اتقاء شرهم ورد غاراتهم [٢] .

ويكاد يشبه موقف جوهر فى عدوله عن اتخاذ الفسطاط أو العسكر عاصمة له وتفكيره فى إنشاء عاصمة جديدة تفى بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف المنصور عند ما فكر فى بناء بغداد . فقد كانت أمامه عواصم إسلامية عديدة يستطيع أن يتخذ إحداها حاضرة له . ولكنه نظر إلى المدينة فوجدها لا تصلح لأن تكون حاضرة لخلافته ، فقد تغير الزمن وأصبح البون شاسعا بين زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمن العباسيين . وأنى دمشق حافلة بذكريات الأمويين ، كما كانت الكوفة مركز الشيعة ، هواها مع على وأولاده . أما الهاشمية فكانت قريبة من الكوفة . وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، ولا سيما بعد واقعة الراوندية . فلم يكن بد إذاً من أن يتجه المنصور شرقا نحو غرب فارس ، حيث كان الأهلون يقدسون ملوكهم فى عهد بنى ساسان وحيث كان أنصاره ممن قامت الدولة العباسية على أكتافهم [٣] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤١٦ .
G. Wiet : Précis d'Hitoire Musulmane de L'Egypte. 32

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦١ .

(٣) G. Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p.p. 1—6.

كذلك فعل كل من قسطنطين والاسكندر من قبله . فقد رأى قسطنطين أن آثينا لا تصلح لأن تكون حاضرة لدولته لقربها من بلاد اليونان الغربية موطن الديموقراطية وشغب مجلس السناتو ، فحول وجهه نحو الشرق مهد الاستبداد والحكم الفردى القديم ، ورأى أن موقع بيزنطة هو المكان الذى يصلح لأن يكون حاضرة لملكه ، لأنه يفى بتحقيق أغراضه السياسية والدينية وأما الاسكندر الأكبر فقد اختار موقع مدينة راقودة[1] لبناء الاسكندرية لتكون حاضرة لدولته وموطنا للثقافة اليونانية، وذلك لقربها من بلاد اليونان ووقوعها على البحر الأبيض المتوسط واسطة العقد بين دول العالم القديم . هذا إلى أن اليونان كانت أمة بحرية ، ومن ثم كان من الضرورى أن تتخذ حواضرها على البحر .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه اليه نظر أكثر الفاتحين الذين يقيمون دولهم على أنقاض دول أخرى ، أن يتخذوا عاصمة جديدة تفى بحاجات دولتهم الناشئة .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها بالمنصورية نسبة إلى المنصور أبى المعز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر فسماها القاهرة(٢) . وقد اختلف المؤرخون فى تسمية هذه المدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقماق (٣) إنها سميت بذلك لأن أساسها شق(٤) على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر وهو كوكب

---

(١) راقودة أو راقوتيس : كانت قرية صغيرة بجوار موقع الاسكندرية الحالى . المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص٧٣ ، الخطط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٥ ، ابن دقماق ص ٣٥ .

(٣) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .

(٤) حفر

يقال له « القاهر » . ويقول المقريزى : « إن القائد جوهر لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لايخرج البلد عن نسلهم أبداً، فاختاروا طالعاً لوضع الأساس ، وطالعاً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس، وقالوا للعمال ، إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها . فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا . فصاح المنجمون القاهر فى الطالع . فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة »(١) .

ونحن لا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولا سيما أن المعز — على ما ذكره ابن القلانسى(٢) — كان مغرما بعلم النجوم ،وكان يستشير منجمه فى كل مايتعلق بحياته الخاصة وفى أمور الدولة العامة . على أنه يظهر لنا أن هذه الحكاية تكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التى يخلقها الناس ويتحدثون بها عند تخطيط عاصمة من العواصم . فقد ذكر المقريزى نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الإسكندرية فى عهد الإسكندر .

وقيل أيضاً إنها سميت القاهرة : لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها . وليس بعيداً أن يكون اسم القاهرة مأخوذا من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر « لتدخلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا »(٣)

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦ ، ٤٤١ ، المقريزى: الخطط ج ١ ص ٢٥٤

(٣) القلقشندى ج ٣ ص ٣٤٩

تقع القاهرة المعزية[١] شمال الفسطاط . وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وكانت حدودها الشرقية هى حـــدود القاهرة الحالية ، أما الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج[٢] . وعلى ذلك فهى تحد شمالا بباب النصر ، وجنوبا بباب زويلة [٣] ، وشرقا بباب البرقية والباب المحروق[٤] (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السعادة وباب الفرج وباب الخوخة .

وتشمل القاهرة المعزية — على ما رواه المقريزى — أحياء الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق (٥) . ويقال إن المعز لما قدم القاهرة ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها ، وقال « يا جوهر فاتتك عمارتها ها هنا[٦] يريد المقس »[٧] .

---

(١) أطلق على المدينة التى بناها جوهر للمعز اسم « القاهرة المعزية » نسبة إلى الخليفة المعز (ابن خلكان ج ص ١٠٣) ، كما أطلق عليها اسم « القاهرة المحروسة » لارتفاع سورها وضخامة أبوابها .

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 123, 127

(٢) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte

(٣) ليس باب زويلة من المدينة التى أسسها جوهر بل هو زيادة حدثت بعد ذلك .

(٤) يلاحظ أن موضع هذين البابين هو غير الموضع الذى كانا فيه أيام جوهر

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٧٣

Lane—Poole : The Story of Cairo,

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٤

(٧) المقس : ضيعة كانت تعرف بأم دنين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المعز مرفأ صناعيا وأنشأ بهـا الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لإقامة صاحب المكس والعشار فيها ، ثم قلبت فقيل المقس ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٢١ .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير[١] من اللبن ، يقدر حجم اللبنة منه ذراع فى ثلثى ذراع . وقد ضم ذلك السور بين جوانبه الخطط التى تكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة. وإلى الجنوب الشرقى من ذلك السور تقع مدينة الفسطاط ، وإلى الغرب منه تقع المقس ، وكانت ميناء القاهرة حتى تأسست بولاق[٢] بعد أن تحول مجرى النيل فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . وقد أصبحت بولاق مدينة تجارية منذ ٧١٣ ﻫ عند ما أمر الملك الناصر بعمارتها ، وبنى بها الدور على شاطىء النيل فسكنها الناس وعمروها .

وكان اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، بينما كان يعرف الجزء الواقع خارج هذه الأسوار بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد فيما بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهى المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق[٣].

وفى ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ وضع جوهر أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز ، فى ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة ، وكان يقع شرقى سور المدينة ، لذلك أطلق عليه اسم القصر الكبير الشرقى . وكان يسمى هذا القصر أيضاً القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذى أمر جوهراً

---

(١) بنى سور القاهرة ثلاث مرات : الأولى فى سنة ٣٥٨ ﻫ فى عهد القائد جوهر ، والثانية فى سنة ٤٨٠ ﻫ فى خلافة المستنصر ، والثالثة فى سنة ٥٦٦ ﻫ فى عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (المقريزى الخطط ج ١ ص ٣٧٧) على يد وزيره بدر الجمالى الذى هدم هذا السور وبناه بالأحجار . أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٢٣ .

(٢) Lane—poole : Egypt in the Middle Ages P. 113

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٩

ببنائه حين سيره لفتح مصر ، ووضع له رسمه(١). وكان يسكنه الخليفة ويجلس فيه للنظر فى أمور الدولة ، كما كان به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها ، وكذلك الجند لحراسة الخليفة . ويذكر المسيو ميجون أنه كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة(٢).

وكان فى ذلك القصر أبواب كثيرة ، نخص بالذكر منها : باب الذهب وتعلوه منظرة يشرف منها الخليفة فى بعض الأوقات ، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة تقف فيها الجنود يومى العيدين وتعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل إلى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وموضعه خان الخليلى الآن . وقد دفن المعز فى هذه المقبرة جثث آبائه المهدى والقائم والمنصور التى أحضرها معه فى توابيت من بلاد المغرب .

وقد ظلت هذه المقبرة مدفناً للخلفاء وأولادهم ونسائهم حتى أنشأ فيها ركن الدين الخليلى ، أحد أمراء المماليك ، خانه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظامهم وألقاها على تلال البرقية(٣) وبين باب الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع ، التى كان يصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر فى ليالى الوقود(٤). فيجلس بمنظرة هذا الجامع لمشاهدة الناس . ويقابل باب الديلم ، الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من القصر ، وكان يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة . وبجوار رحبة باب العيد دار

(١) المقريزى ج١ ص ٣٨٤

(٢) G. Migeon : Art Musulman, I. p. 42

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٧

(٤) ليالى الوقود : هى الليالى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان . وكان الناس تبعاً للتعاليم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان . ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون برمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر .

الضيافة ، وكان يسمى بدار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين تربة الزعفران وباب الزهومة[١] . وبين هذا الباب والجامع، كانت خزائن القصر ومن بينها خزائن الكتب والمشروبات والأسلحة والكسى والفرش ، وكانت تقع فى الجهة الشرقية من القاهرة المعزية .

وقد دخل المعز ذلك القصر فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ ه ، وأثثه بفاخر الرياش وكل مايحتاج إليه الملوك والخلفاء[٢] .

وكان يقع أمام القصر الشرقى ، القصر الذى بناه العزيز ، وكان أصغر منه ويعرف بالقصر الغربى وقد بنى فى موضعه المارستان الكبير المنصورى . ولا يزال بعضه إلى اليوم يعرف بسوق النحاسين[٣] ، وبجواره الميدان والبستان الكافورى[٤] ودار الضيافة القديمة ورحبة الإقبال . وكان بين ذلك القصر والقصر الشرقى الكبير فضاء متسع يسع عشرة آلاف جندى ، أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين » . وقد اختط جوهر طريقاً عاماً يمر وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا إلى باب الفتوح .

ويصف لنا على مبارك باشا[٥] مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز فى هذه العبارة : « شكل مدينة القاهرة فى أيام القائد جوهر كان مربعا تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فـدانا : منها نحو سبعين فدانا بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة

---

(١) سمى بباب الزهومة : لأنه كانت تشم منه رائحة اللحم .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٤

(٣) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٤) البستان الكافورى هو : الحديقة الغناء التى أنشأها كافور واستولى عليها الفاطميون . وكان يقع غربى سوق النحاسين الآن .
G. Migeon : Art Musulman, t. I. p. 41

(٥) الخطط ج ١ ص ٨١

وثلاثون فدانا للبستان الكافورى ، ومثلها الميادين ، فيكون الباقى مائتى فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين مترا ، وفى سنة ستة وثمانين وأربعمائة فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى هدم هذا السور وبنيت الأبواب من حجر »[1] .

ولما اختط القائد جوهر مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب : هى بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح . ويقول ستانلى لين پول[2] أن بابى زويلة يتكونان من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمى « باب القوس » . وقد مر منه المعز عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركا . أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه .

ويقول القلقشندى[3] إن جوهراً سمى بابى زويلة بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة ، إحدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب . ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر مصر فى سنة ٤٨٥ هـ (فى زمن الشدة العظمى) بنى باب زويلة الكبير الذى لايزال باقيا إلى اليوم . أما باب النصر فقد بناه جوهر خارج مدينة القاهرة ، وظل فى موضعه حتى جاء بدر الجمالى ونقله إلى المكان الذى يوجد به الآن . أما الباب المعروف بباب الفتوح الآن فهو من عمل أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد بناه فى غير المكان الذى بنى فيه جوهر بابه الذى لم يبق منه سوى عقده وعضادته اليسرى[4] . ويقول مسيوفيت : إن هذه الأبواب الثلاثة التى جدد بناءها بدر

---

(١) ذكر الاستاذ مرجوليوث
Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus
إن السور الذى أقامه بدر الجمالى قد زاد مساحة المدينة ٦٠ فدانا

(٢) Lane—Poole : The story of Cairo, p.129

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٨١

الجمالى تجمع بين سلامة الذوق ودقة البناء . وهى من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرهاء (١) .

وكانت القاهرة فى أيام جوهر صغيرة ، ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وثكنات الجنود ودور المغاربة ورجال الحاشية وحرس الخليفة (٢) . وكان سكانها جميعاً من الشيعة. ثم ظلت تتدرج فى العمران حتى بلغت فى نهاية عهد الفاطميين درجة كبيرة من التقدم ، فأقيمت فيها المبانى الفخمة والقصور الشاهقة والأسواق الكبيرة ، وأنشئت بها الحدائق الغناء ، وبنيت بها الدور والحمامات والحوانيت والمدارس والمساجد والفنادق ، واختطت الشوارع والأزقة والدروب والحارات .

بناء الجامع الأزهر :

دخل الإسلام مصر فى سنة ٢٠ هـ (سنة ٦٤٠ م) ، فأخذ المسلمون فى بناء المساجد . ولم يكن الباعث على بنائها مقصورا على الأغراض الدينية وحدها كما كان الحال فى جامع عمرو ، بل كان ذلك راجعاً إلى أسباب سياسية واجتماعية أيضاً . وكانت تتخذ بعض المساجد حصونا : فكان يراعى فى بنائها أن تكون كبيرة الحجم لتسع عددا كبيراً من الجند . وخير مثل لذلك جامع ابن طولون ثالث المساجد الجامعة فى مصر .

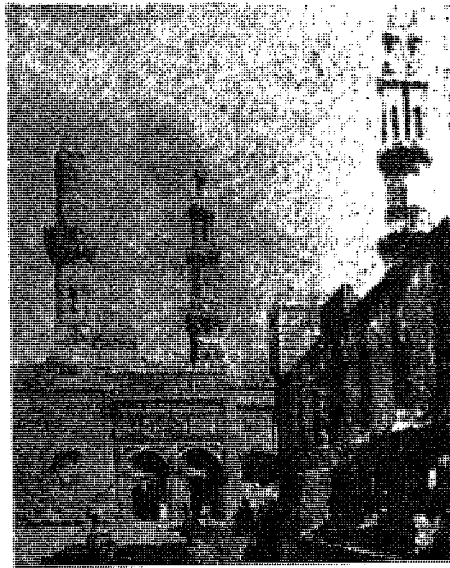
ولم تلبث هذه المساجد أن استخدمت فى الأغراض العلمية إلى جانب الأغراض السياسية والدينية ، فكان يدرس فيها اللغة العربية وأصول الدين.

(١) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte p. 36—37.

أنظر أيضاً :

Mme R. L. Devonshire : Quatre-Vingts Mosquées du Caire, p. 21.

(٢) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 125



الجامع الأزهر

وكان من بين تلك المساجد ، الجامع الأزهر ، الذى ذاعت شهرته وأصبح مركزا لدراسة الدين الإسلامى ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى العالم الإسلامى أجمع .

كان جامع عمرو أقدم هذه الجوامع . فقد أسسه عمرو بن العاص حين رجع من الإسكندرية ، بعد تخطيط مدينة الفسطاط . وكان أول ما اتجه إليه نظره أن يبنى المسلمين مسجداً يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، وذلك جرياً على السياسة التى سار عليها المسلمون فقد كانوا يقيمون فى عاصمة كل إقليم يفتحونه مسجداً للجماعة .

بنى عمرو بن العاص جامعه المشهور سنة ٢١ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية . ومن ثم أطلق عليه المسجد العتيق ، و تاج الجوامع ، والمسجد الجامع[1] . ويقع شمالى حصن بابليون الذى كانت تقيم فيه حامية الروم

(١) ابن دقاق جـ ٤ ص ٥٩

وقت الفتح الاسلامى . وأول من زاد فى هــــذا الجامع مسلمة بن مخلد الأنصارى (٤٧ — ٦٢ هـ) والى مصر من قبل معاوية ، فزخرف سقفه وجدرانه ووسعه من الجهتين الشرقية والشمالية . ولما ولى عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) من قبل أخيه عبد الملك بن مروان ، هدم هذا الجامع وبناه من جديد ووسعه من جميع جهاته(١) ، فظل المسجد عامرا يؤمه الناس للصلاة فى كل يوم . ويقول ستانلى لين پول إنه كانت لهذا المسجد أهمية دينية كبيرة عند المصريين ، ولايزال أهل القاهرة يحرصون على إقامة صلاة الجمعة اليتيمة به إلى اليوم(٢) . ولم يبق من البناء الأصلى شيء الآن ، فقد بناه عمرو باللبن . وإنما ترجع أهميته التاريخية إلى موضعه الذى بنى فيه أولا باعتباره الموضع الذى أقيم فيه أول مسجد فى مصر(٣) .

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين أسس صالح بن على مدينة العسكر . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) بنى الفضل بن صالح مسجد العسكر فغدا من المسجد الجامعة بالديار المصرية ، وكان بجوار دار الإمارة وسط هذه المدينة. ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون وظل قائماً فى مكانه حتى خربت المدينة كلها ونقل أنقاضها أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى(٤) إلى مدينة القاهرة لتعميرها .

ثم جاءت الدولة الطولونية فبنى أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية والجهة الشمالية من العسكر . ويقال أن الذى دعاه إلى بنائه هو ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند أحمد بن طولون وخدمه وعبيده من جهة ثم التقرب إلى

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٤٦

(٢) Lane—Poole : The Story of Cairo p. 44

(٣) Devonshire : Quatre—vingts Mosquées du Caire, p. 10

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥

الله تعالى من جهة أخرى . وقد جدده المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ ، فإنه بعد أن قتل الملك الأشرف برسباى اختفى فى ذلك الجامع ونذر أن يعمره إذا منّ الله عليه بالخلاص . وقد وفى بنذره فاهتم بعمارته وأعاده إلى ما كان عليه من البهاء والرواء ، ووقف عليه الأوقاف وقرر تدريس العلوم العقلية والنقلية فيه(١) .

وهذا الجامع هو أقدم آثار مصر الإسلامية التى بقيت على حالها الأول(٢) فقد سقطت مبانى مدينة القطائع وزالت معالمها عدا هذا المسجد ، وذلك حين جاء محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسى المكتفى إلى مصر ووضع النار فيها بأمر الخليفة . ويرجع السبب فى بقاء هذا الجامع حتى اليوم إلى استعمال الجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار فى بنائه . وقد أشير على ابن طولون باستعمال هذه المواد فى البناء حين قال لأصحابه : « أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقى ، وإن غرقت بقى (٣) » .

جاءت بعد ذلك الدولة الفاطمية ، وتم فتح مصر على يد جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ وأسس مدينة القاهرة ، فى نفس الليلة التى دخل فيها مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) ، لتكون أشبه بمدينة حصينة ومعقلا له ولجنده وأنصاره من المغاربة ولتقيه شر القرامطة . وكان المذهب السنى فى ذلك الوقت منتشراً فى مصر ، ولم ير جوهر - بما عرف عنه من الحزم وبعد النظر - أن يفاجىء السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى . نخص منها بالذكر تلك العبارة « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » التى كان يذكرها الفاطميون فى الخطبة ، حتى لا يثير جوهر حفيظة المصريين .

لذلك عول جوهر على تلافى الشر قبل وقوعه . فبنى مسجدا يتلقى فيه

(١) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ١٢١ - ١٢٤
(٢) ابن دقماق : نفس الجزء والصفحة
(٣) الخطط جـ ٢ ص ٢٦٧

الناس عقائد المذهب الفاطمى . ومن ثم شرع فى بناء الجامع الأزهر فى يوم السبت الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ ﻫ (سنة ٩٧٠ م) . وتم بناؤه فى سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان (سنة ٣٦١ ﻫ و ٢٢ يونية سنة ٩٧٢ م)[١] .

* * *

كان الأزهر أول مسجد شيد فى مدينة القاهرة المعزية وأشهر جامع فى العالم الإسلامى ، وأعظم جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية الآن ، تقصده الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقى العلم فيه[٢] .

وقد اختلف المؤرخون فى تسمية هذا الجامع : فقال بعضهم إنه كان يحيط به القصور الزاهرة التى بنيت عند إنشاء مدينة القاهرة ، ولذا سمى بالأزهر . وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه . ويظهر لنا أن الفاطميين الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، وما إلى ذلك من الملحقات التى تتبع المساجد عادة من منارات ومغاطس وغيرها . وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة بها ستة وسبعون عموداً من الرخام الجيد الأبيض اللون فى صفوف متحاذية . وفى سنة ١٦٧ ﻫ بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة ثانية بها خمسون

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، القلقشندى : ج ٣ ص ٣٦٤ .
Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٢) Mme R. T. Devonshire : Quatre—vingts Mosquées du Caire, p. 11. G Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

عمودا من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدتهما مائة وستة وعشرون عمودا . وإذا أضيف إلى هذا العدد ، الأعمـــدة الموضوعة بملحقات الجامع كان مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نصف ذراع عن التي بناها القائد جوهر . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء ، وأما صحن الجامع ، فهو مكان متسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، يجلس فيه الطلبة في الشتاء للتمتع بحرارة الشمس ، وينامون به في فصل الصيف عند اشتداد الحر . ويقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين. وهو محاط من جهاته الأربع بيوائك تقوم على أعمدة من الرخام ، وعلى حيطانه آيات قرآنية منقوشة بخط كوفي جميل (١) .

وقد أنشأ القائد جوهر بهذا الجامع محرابا بالمقصورة القديمة يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى . ولم يبق من هذه المحاريب سوى ستة ، أشهرها إثنان أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الديني .

وللجامع منبر واحد ، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع ، وله خطيب خاص في الجمع والأعياد . وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه القائد جوهر إلى جامع الحاكم .

وقد أنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ، ووظيفته التنبيه على أوقات الصلوات . وكان يتبع أذان المنارات الأخرى بالقاهرة أذان الأزهر . وكان

---

(١) G. Wiet : Précis d' Histoire Musulmane de L'Egypte, p.42

الميقاتى يعرف الأوقات بالنظر فى المزولة التى لاتزال قائمة إلى اليوم بأحـــد جدران صحن الأزهر .

وكان المعز يذهب إلى الجامع الأزهر فى يوم الجمعة فى موكب حافل لإقامة الصلاة . وقد سار على هذه السنة من جاء من الخلفاء الفاطميين بعد المعز . وقد ذكر المقريزى أن الخليفة العزيز الفاطمى هو أول من حوّل الأزهر من مسجد تقام فيه الصلاة إلى جامعة تدرس فيها العلوم ، كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه وبنى لهم المساكن للإقامة فيها[1] .

(١) الخطط ج ١ ص ٢٧٣

الباب الخامس

حياة جوهر فى مصر بعد قدوم المعز إليها

قدوم المعز إلى مصر :

ظل جوهر يحكم مصر بنفسه أربع سنوات ، منذ فتحها سنة ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م)(١) . وقد ذكر ابن خلكان(٢) إن جوهراً طالما كتب إلى المعز يستدعيه للحضور إلى مصر لتولى شئونها ، بعد أن رأى أن مصر والشام والحجاز قد خضعت لسلطان الفاطميين وخطب للمعز على منابرها . فلما وجد المعز أن دعائم ملكه قد توطدت فى الشرق ، عزم على الرحيل إلى مصر .

خرج المعز من المنصورية يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢ م) ، يريد مصر . فوصل سردانية وأقام بها مدة حتى اجتمع إليه رجاله وأتباعه . وهناك عقد العهد لبلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على إفريقية (الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ هـ وسبتمبر سنة ٩٧٢ م) . وأمر المعز أهل إفريقية بطاعته والائتمار بأمره(٣) . ثم رحل عنها يوم الخميس ٥ صفر سنة ٣٦٢ هـ ، ولم يزل فى طريقه حتى وصل إلى برقة ومنها إلى مصر .

وقد دخل المعز الأسكندرية ، ممتطِ جواده (السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ و١٩ مايو سنة ٩٧٣ م) ، فى جمع كبير من رجالات دولته ، من بينهم أولاده

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٠

(٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٠٢

(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٠٨

وأخوته وأعمامه ، ومعه جثث آبائه المهدى والقائم والمنصور(١). فاستقبله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم أبو الطاهر قاضى مصر ، فجلس المعز عند المنارة وخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها ، أنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم وأطال فى الوعظ حتى بكى بعض الحاضرين . ثم خلع على القاضى وبعض من كان معه ، ثم انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه(٢) .

رحل المعز من الأسكندرية فى أواخر شعبان سنة ٣٦٢ هـ ووصل إلى الجيزة فى ٢ رمضان من هذه السنة . فخرج إليه القائد جوهر وترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه . واجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات . وقد أقام المعز بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلالها فى العبور بأمتعتهم إلى ساحل مصر . وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ عبر المعز النيل ودخـــل القاهرة دون أن يمر على الفسطاط ، وكان الأهلون قد زينوها له بالزينات الباهرة ظناً منهم أنه سيبدأ بدخولها ، بينما يستعد أهل القاهرة للقائه(٣) .

ولما وصل المعز إلى القاهرة (الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ) ، دخل القصر الذى بناه له جوهر ، وخر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين فى إحدى ردهاته ، وصلى خلفه من كان معه ، وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة(٤) ، وغدت القاهرة - بدل القيروان -

---

(١) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte p. 33
G. Wiet : Art Musulman, t. I, p. 41

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٢

(٣) G. Migeon : Art Musulman, t. p. 41

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٩

مركز هذه الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء . على أن نقل المعز مقر خلافته من المهدية إلى القاهرة قد أفقد الفاطميين إفريقية (تونس)[١] . فإن بلكين شيخ صنهاجة من قبائل البربر سرعان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية فى سنة ٣٦٢ هـ . وحذا حذوه فى ذلك الحماديون فى سنة ٣٩٨ هـ . وفى عهد المستنصر تم استقلال أمراء شمال إفريقية (سنة ٤٤٠ هـ) ، وخرجت هذه البلاد نهائيا عن سلطان الفاطميين[٢] .

أقام مع المعز فى القصر أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده . وكان بالقصر كل ما يحتاج إليه الملوك من مال وعين[٣] وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح . وكان جوهر يقيم فى ذلك القصر ، فلما علم بوصول المعز إلى الجيزة تركه ولم يحمل معه شيئاً من أثاث القصر إلا ما كان عليه من الثياب ، ونزل فى داره بالقاهرة[٤] . وفى اليوم التالى لوصول المعز خرج أشراف مصر وقضاتها وعلماؤها ووجوهها لتهنئته والاحتفال بوصوله .

جلس المعز فى قصره فى الخامس عشر من شهر رمضان على السرير الذهب الذى صنعه له جوهر فى الإيوان الجديد . ثم أذن المعز بدخول الناس عليه . فدخل الأشراف ، ثم الأولياء ، فسائر وجوه المدينة ، وجوهر قائم بين يديه ، يقدم الناس قوما بعد قوم[٥] ثم قدم جوهر هديته إلى مولاه المعز . وكانت — على ما ذكره المقريزى نقلا عن ابن زولاق — مائة وخمسين فرسا مسرجة ملجمة ، وكان من تلك السروج واللجم ، ما هو موشى بالذهب

---

(١) Lane—Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

(٢) Lane—Poole : op. Cit, p. 39

(٣) العين : مشترك لفظى يطلق على أشياء مختلفة . ولعل المقصود بها هنا النقد وكذا الدنانير المضروبة والغير المضروبة .

(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ١٢٠

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٠ — ٩١

وما هو مرصع بالجواهر ، وواحد وثلاثون فيه على بخاتى[١] بالديباج[٢] والمناطق[٣] والفرش ، ومنها تسع نوق محملة بالحرير ، وثلاث وثلاثون بغلة ، منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلة للنقل ، وتسعون نجيبا[٤] ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أوانى الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة . ودرجات من فضة مخرقة فيها جوهر ، وشاسية مرصعة فى غلاف ، وتسعمائة سفط ، وتخت[٥] ، فيها الطرف وكل ما أعده جوهر لمولاه المعز من ذخائر مصر[٦] .

ولما فرغ جوهر من تقديم هديته قام أبو جعفر بن عبيدالله الحسينى وقدم هديته إلى المعز وهى أحد عشر سفطاً من متاع تونة[٧] وتنيس[٨] ودمياط ،[٩]

---

(١) البخت : نوع من الإبل.

(٢) الديباج : ثوب سداه ولحمته إبريسم (حرير) ويقال هو معرب. ثم كثر حتى اشتقت العرب منه .

(٣) المناطق : جمع منطق وهو ما يشد به الوسط .

(٤) النجيب : هو الكريم (الأصيل) من الجيل .

(٥) تخت : وعاء

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ : اتعاظ الحنفا ص ٩١ ،
G. Migeon : Art Musulman I. p. 42

(٧) تونة : جزيرة قرب تنيس ودمياط .

(٨) تنيس: جزيرة بين الفرما ودمياط .

(٩) اشتهرت هذه المدن فى ذلك الوقت بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها، حتى كان لها شهرة عالمية فى ذلك المضمار . فقد كان يضرب المثل بثياب تونة ، وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا . كما اشتهر أهل تنيس بعمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، وأهل دمياط بصناعة الأقمشة القلمونية التى أخذت صناعتها عن بلاد اليونان ، وهى نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ؛ وقد ذكر ياقوت عند كلامه على دمياط وتنيس أن حاكة الثياب الرفيعة =

وخيل وبغال . وقال : « كنت أشتهى أن يلبس منها المعز لدين الله ثوبا أو يتعمم بالعمامة التى فيها ، فما عمل لخليفة قط مثلها »(١) .

وبعد أن تقبل المعز ما قدم اليه من الهدايا والتحف أذن لجماعة المهنئين بالجلوس فى مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والكافوريين وكانوا نحو الألف .

وفى عيد الفطر، ركب المعز إلى مصلى القاهرة الذى بناه جوهر ، فأقبل عليه فى موكبه ،وجلس خلفه من الجهة اليمنى أبو جعفر مسلم العلوى وصلى المعز بالناس صلاة العيد صلاة تامة طويلة . فقرأ فى الركعة الأولى أم الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية ، ثم كبر بعد القراءة وأطال الركوع والسجود، وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير . ثم قرأ فى الركعة الثانية أم الكتاب وسورة الضحى ، ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهى صلاة جده على ابن أبى طالب. وأطال الركوع والسجود فى الثانية أيضاً . قال ابن زولاق: قد سبحت خلفه فى كل ركعة وسجدة نيفا وثلاثين تسبيحة. وجهر المعز ببسم الله الرحمن الرحيم ، فى كل سوره . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ومعه القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع صاحب المظلة . وخطب الناس ، وأبلغ فى خطابته حتى أبكاهم ثم انصرف فى عساكره(٢) . ولما وصل إلى قصره دعا الناس لتناول الطعام عنده ، وعاتب من تأخر منهم ، وتهدد من بلغه عنه صيام العيد .

وقد خلع المعز على جوهر فى ذلك العيد خلعة مذهبة ، وعمامة وقلده

= بهما كانوا من القبط ، وأن أهل دمياط كانوا يستأجرون غرفا فى قبوات على خليج دمياط لعمل الثياب المعروفة بالشرب .

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ٩١

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٩

سيفا كما قدم اليه عشرين فرسا مسرجة ملجمة ومنحه خمسين ألف دينار ومائتى الف درهم . وقد منح المعز جوهراً هذه الهدية إعجاباً بما أصابه من النجاح فى فتوحه وتقديراً لما قدمه إليه جوهراً من تلك الهدية الثمينة التى أتينا على وصفها .

ولما فرغ المعز من الاحتفال بعيد الفطر ، ركب إلى المقس ، وأشرف على أسطوله ، وقرأ عليه وعوذه ، وخلف عليه جوهراً والقاضى النعمان ، ثم عاد إلى قصره (١) . ومن هنا تتبين أن جوهراً كان لا يزال يتمتع فى ذلك الوقت بشىء من النفوذ الذى كان يتمتع به قبل وصول المعز إلى مصر .

* * *

ظلت مقاليد الأمور فى مصر بيد جوهر حتى قدم المعز فى سنة ٣٦٢هـ . وقد استأثر المعز بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ . على أن جوهراً قد بقى بجانب المعز يدله على أحوال البلاد ويشير عليه بما تتطلبه من وجوه الإصلاح .

ولم يذكر التاريخ شيئاً يدل على أن المعز قد حفظ لذلك الفاتح المعظم ما كان له من الأيادى البيضاء على الدولة الفاطمية ، وما قام به من فتح مصر والشام وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهم بها ، وصد غارات القرامطة عن مصر ، تلك الغارات التى كادت تقضى على الدولة الفاطمية الناشئة . وكل ما حفظه لنا التاريخ أن المعز — على الرغم مما حبا به جوهر من العطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير — قد أقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالخراج والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩١

والمواريث والشرطتين وغيرهـا ، وقلدها يعقوب بن كاس وعسلوج ابن الحسن .

وهـكذا نرى جوهراً يتوارى قليلا قليلا عن مسرح السياسة المصرية ولم يعد إلى الظهور إلا أواخر سنة ٣٦٤ هـ ، حين تفاقم خطر أفتـكين والحسن ابن أحمد القرمطي واستعصى على المعز وقواد جيشه كبح جماحهما . فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه . ولم يكن جوهر فى تلك المدة أقل إخلاصاً وولاء لمولاه المعز ثم لابنه العزيز من بعده عما كان عليه من قبل ، وكان ذلك آخر عهد جوهر بالشئون العامة فى مصر .

وهنا نتساءل عن السبب فى موقف المعز إزاء هذا القائد العظيم والفاتح الكبير وإقصائه إياه عن المناصب العامة فى تلك البلاد التى تم فتحها على يده . ولعل المعز قد سلك مع جوهر ماسلكه غيره من الخلفاء قبله مع عظماء قوادهم من مؤسسى الدول وذوى الشخصيات البارزة . وذلك لما كانوا يخشـونه على نفوذهم أن ينتقل إلى هؤلاء . وإن تعوزنا المثل للتدليل على صحة هـذا القول : فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مســلم الخراسانى الذى قامت على أكتافه الدولة العباسية ، وكذلك فتك عبيد الله المهدى بأبى عبد الله الشيعى بعد أن انتشرت على يده الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطميـة فى بلاد المغرب . على أن جوهراً — وإن جازاه المعز على فتوحه جزاء سنمار — فقـد كان أحسن حالا من غيره من القواد الفاتحين ، كأبى مسلم وأبى عبد الله الشيعى .

تثبيت سلطان الفاطميين فى سورية

قد ذكرنا كيف تفاقم خطر أفتـكين والقرامطة فى الشام واستعصى أمرهما على الخليفة المعز ، والآن نبين كيف تم القضاء على أفتـكين والحسن زعيم القرامطة ، وكيف عادت بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين .

توفى المعز فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ (سنة ٩٧٥ م) وتولى الخلافة من بعده ابنه العزيز . فكتب إلى أفتكين يستميله إليه ويعده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق . فرد عليه أفتكين برد جاف جاء فيه « هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً »(١)

وقد استاء العزيز من ذلك الكتاب ، وحنق على أفتكين واستشار وزيره يعقوب بن كلس فى الأمر ، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم أفتكين لإخراجه منها عنوة . فوجد العزيز فى جوهر رجل الساعة الذى يعتمد عليه ويركن إليه فى استقرار الأمور فى بلاد الشام وتثبيت الفتح الفاطمى بها ، كما اعتمد عليه المعز فى فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد . وكان جوهر عند ظن العزيز به .

سار جوهر سنة ٣٦٦ هـ على رأس جيش عظيم لقتال أفتكين والقرامطة فلما علم القرامطة بذلك وهم فى الرملة فروا إلى الأحساء . فدخلها جوهر واحتلها .

ولما علم أفتكين بمسير جوهر إلى دمشق واحتلاله الرملة ، استثار حماس أهل دمشق بتلك الخطبة التى ننقلها عن ابن القلانسى(١) : « وقد علمتم أنى لم أتوسطكم ، وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومرادكم ، وقد طلبنى من هذا السلطان ما لا طاقة لى به . وأنا منصرف عنكم وداخل إلى بلاد الروم ، وعامل على طلب موضع أكون فيه ، واستمدما أحتاج إليه منه ، لئلا يلحقكم بقصد من يقصدكم ما يثقل به الوطأة عليكم ، وتصل به المضرة إليكم » .

ويظهر أن أفتكين قد أفلح فى سياسته ، فقد جدد أهل الشام ثقتهم به ، يدل على ذلك ماجاء فى ردهم على خطبته من تلك العبـــارة « أما أخترناك

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٥ — ١٦

لسياستنا ورياستنا ، على أن نمكنك من تركنا ومفارقتنا أو تألون جهداً من نفوسنا ومساعدتنا ؟ دونك وبين يديك فى المدافعة عنك » .

وكان بيد جوهر أمان من مولاه العزيز لأفتكين ، وخاتماً ، ودستا من ثيابه ، وكتاباً بالعفو عنه لما فرط منه . فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إلى أفتكين فى لين ورفق ، وذكر له ما كتبه له العزيز من الأمان وما أعده له من الهدايا ، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمن إلى نصابه . فكتب إليه أفتكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز ، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء فى كتابه . ثم سار أفتكين من عكا إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة واستعد للقاء جوهر وجمع الأقوات من بلاد حوران والبثنية ، ثم دخل دمشق وتحصن فيها .

ترك جوهر دمشق فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٦٦ هـ فبنى سورا يضم عسكره وحفر خندقا كبيرا . ثم جمع أفتكين الجند للقتال ، ووقعت بينه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها الدائرة على أفتكين فى ٢١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ رغم ما أبداه من شجاعة نادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق . وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب إلى الحسن القرمطى يطلب منـــه السير إليه ومعاونته على قتال المغاربة . فلبى الحسن طلب أفتكين وسار إلى دمشق ، ولا شك أن جوهراً لم ينس مصير جعفر فى حربه مع القرامطة سنة ٣٦٠ هـ . فطلب جوهر الصلح على أن يجلو عن دمشق ، ولا سيما حين رأى أن موارده قد نضبت وأن المؤونة قد أعوزته ، وهلك معظم جنده . وهـذا يفسر لنا قوة القرامطة ونفوذهم ونظامهم فى الحروب ، حتى إن مجرد نبأ سيرهم كان كافيا لتراجع قائد عظيم كجوهر وإسراعه إلى طلب الصلح .

أجاب أفتكين جوهراً إلى طلبه . فرحل هذا عن دمشق فى ٣ جمادى الأولى سنة ٣٦٦ هـ ، وجد فى المسير لاقتراب القرامطة منها ، ثم ذهب إلى طبرية . فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة سار إليه بعد أن رحل

جوهر عنها إلى الرملة . فبعث الحسن سرية لقتاله ووقعت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب . ثم ذهب إليه الحسن وتبعه أفتكين لقتال جوهر [١] . وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ، وكان المورد الوحيد للماء فى هذه الناحية .

فلما رأى جوهر أن أفتكين قد أخذ عليه الماء ، وأنه لم يكن أمامه إلا ماء الأمطار التى يجمعها فى الصهاريج مما لا يكفى جنده الكثيف ، كتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء فى هذا المكان وأنه لا قبل له بمقاومة جيوش أفتكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان إذا دعت الحال . فأذن له العزيز بذلك ، فأدلج جوهر إليها ووصل فى آخر الليل . فتبعه أفتكين والحسن القرمطى ، وحاصراه فيها ، حتى ندرت المؤن ، وعزت الأقوات فارتفعت الأسعار ونزل بالأهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسهل معه حمل المؤن إلى جوهر فى البحر ، واشتدت الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة ، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار معزى [٢] .

ولا شك أنه كان لشجاعة جوهر وبعد نظره الفضل فى الخلاص من هذا المأزق الحرج ، فى الوقت الذى كادت جيوشه تقع فريسة لجيوش أفتكين

---

(١) ذكر المقريزى : (الخطط ج ٢ ص ٩) أن الحسن القرمطى توفى بالرملة سنة ٣٦٦ هـ وقام بأمر القرامطة من بعد ابن عمه جعفر ، فأفسد علاقات المودة بين أفتكين والقرامطة . بينما يقول ابن القلانسى إن الحسن ظل يناصب الفاطميين العداء ويثير القلاقل والفتن فى سورية حتى سنة ٣٦٨ هـ ، حيث هرب من ميدان القتال بعد أن هزمه العزيز . ونحن نرجح ما ذكره ابن القلانسى ، فقد نصب نفسه لجمع تاريخ دمشق دون غيرها من البلدان ، هذا إلى أنه قد سبق المقريزى بنحو ثلاثة قرون ، فقد توفى سنة ٥٥٥ هـ ، بينما توفى المقريزى سنة ٨٤٥ هـ

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ — ١٧ .

والحسن القرمطي . فقد عمل على القضاء على ذلك التحالف المتين الذي كان يربط القرامطة بأفتكين والذي كان الغرض الأول منه القضاء على سلطان الفاطميين في بلاد الشام وانتزاعها من أيديهم .

أراد جوهر أن يصـــل باللين والدهاء ما عجز عن الوصول إليه عن طريق الحرب والقتال . فلا عجب إذا رأيناه يكتب إلى أفتكين يطلب إليه المهادنة وإحلال الوئام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء ، ثم يبعث إليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ما تم هذا الاجتماع رأينا جوهراً يصل إلى غايته بفضل ما وهبه الله من الدهاء والحزم . وقد مهر جوهر في هذه السياسة مهارة كبيرة . فأتى افتكين من ناحية الدين وطلب إليه حقن دماء المسلمين والعمل على إخماد نار الفتنة ، بينما كان يعمل في الوقت نفسه على التفرقة بين أفتكين والحسن القرمطي . حتى إذا ما نجح بعض النجاح في فصم عرى التحالف القائم بينهما ، استطاع في النهاية أن يقضي عليهما جميعا .

وقد ذكر ابن القلانسي[1] أن جوهراً قال لافتكين حين اجتمع به : « قد علمت ما يجمعني وإياك من حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريقت فيها الدماء ، ونحن المأخوذون بها عند الله . وقد دعوتك إلى الصلح والموادعة والدخول في السلم والطاعة ، وبذلت لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت إلا القبول عن يشب نار الفتنة ويستر عنك وجه النصيحة . فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وغلب رأيك على هوى غيرك » . فأجابه أفتكين : « أنا والله واثق بك وبصحة الرأي والمشورة منك . لكنني غير متمكن مما تدعوني إليه ، ولا يرضى القرمطي بدخوله فيه معي » . فرد جوهر عليه : « إذا كان الرأي والأمر على ذلك ، فإني أصدقك على أمري ،

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٧

تعويلا على الأمانة ولما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر ، أن تمن عليّ بنفسي وبهؤلاء المسلمين الذين معي وعندي ، وتذم لي لأمضي وأعــــود إلى صاحبي شاكراً . وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف ، وعقدت عليّ وعلى صاحبي منة تحسن الأحدوثة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها ». فقال أفتكين : «افعل وأمن على أن أعلق سيفي ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتها». فرضي جوهر بذلك وتعاهدا ، وأخذ ختم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . وافترق القائدان ، فعاد أفتكين إلى عسكره ، ورجع جوهر إلى عسقلان ، ثم أرسل جوهر إلى أفتكين الهدايا والطرف .

وقد بعث أفتكين إلى الحسن القرمطي يعلمه بما كان بينه وبين جوهر. فذهب الحسن إليه وقال له « لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته . وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقلك بما عقده معك . وسيرجع إلى صاحبه ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فيأخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هو وأصحابه جوعا ، ونأخذهم بالسيف » . فتمسك أفتكين بما عاهد جوهراً عليه وقال : « قد عاهدته وحلفت له ، وما استجيز الغدر به » . وقد علق السيف والرمح ، فخرج جوهر وأصحابه من تحتهما (١) .

ولاشك أن جوهراً لم يكن يجهل المثل المأثور «الغاية تبرر الواسطة» فقد رضي أن يمر هو وجنده تحت سيف أفتكين ورمح الحسن القرمطي ، في الوقت الذي كان يعلم فيه أن ذلك الحل فيه شيء غير قليل من المذلة والمهانة بالنسبة إليه وإلى الفاطميين . بيد أن جوهراً كان يزن عواقب الأمور ويعرف كيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالماً ظافراً .

على أن جوهرا إنما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى إذا ما أتيحت الفرصة ضرب أفتكين والقرامطة جميعاً . ولم يكن الحسن القرمطي يغفل عن هذه

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧-٨١

الحقيقة حين أخبره أفتكين بما تم بينه وبين جوهر ، تلك الحقيقة التى نتبينها من قول القرمطى : « وجوهر هذا ذوى رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقلك بما عقده معك وسيرجع إلى صاحبه ، ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة » . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وصل جوهر إلى مصر ودخل على العزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال فى بلاد الشام . واستفحال أمر أفتكين ومن معه . فقال له « ما الرأى ؟ » قال : « إن كنت تريدهم ، فاخرج بنفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على إثرى » فأمر العزيز بإعداد العدة ، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخائر وجوهر على مقدمته .

فلما علم أفتكين والحسن القرمطى بما عقد العزيز العزم عليه ، عادا إلى الرملة حيث تلاقى الجيشان ، وحمى وطيس القتال[1] ، « وجال أفتكين بين الصفين يكر ويحمل يطعن ويضرب » . فقال العزيز لجوهر « أرنى أفتكين » فأشار إليه « وهو يطعن تارة بالرمح ويضرب أخرى بالسيف ، والناس يتحامونه ويتقونه » . فأعجب العزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته . ثم وقف العزيز ، وأنفذ إليه رجلا من عنده يقال له نميرة ، وقال له : قل « يا أفتكين أنا العزيز وقد أزعجتنى عن سرير ملكى ، وأخرجتنى لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مسامحك بجميع ذلك ، وصافح لك عنه ، فاترك ما أنت عليه ولذ بالعفو منى . فلك عهد الله وميثاقه ، أنى أؤمنك وأصطفيك ، وأنوه باسمك . . . وأهب لك الشام وأتركه فى يدك »[2] .

مضى نميرة إلى أفتكين وبلغه رسالة العزيز . فخرج أفتكن بحيث يراه الناس ، وترجل ، وقبل الأرض مراراً ومرغ خديه عليها معفراً وقال : « قل

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٨١
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨

لأمير المؤمنين لو تقـــدم هذا القول منك لسارعت إليه ، وأطعت أمرك ، فأما الآن فليس إلا ما ترى » . وعاد نميرة ونقل إلى العزيز ما سمع ، فقال له : « إرجع إليه وقل له يقرب منى بحيث أراه ويرانى . فإن استحققت أن يضرب بالسيف فليفعل » . فمضى نميرة وأبلغه ذلك فقال : « ما كنت الذى أشاهد طلعة أمير المؤمنين وأنابذه الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدى » . ثم حمل على ميسرة الفاطميين ، فهزمها وقتل كثيراً من رجالها . وشاهد ذلك العزيز بعينى رأسه فحمل بميمنة جيشه والمظلة على رأسه ، فهزم أفتكين والقرمطى فى يوم الخميس ٢٣ المحرم سنة ٣٦٧ هـ وأعمل السيف فى جيشهما وقتل من جندهما نحو عشرين ألف رجل . وفر الحسن القرمطى هارباً راضياً من الغنيمة بالإياب .

وبذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية. وفر أفتكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل العزيز لمن يجىء به مائة ألف دينار ، وأرسلوه إلى العزيز ، فأمر أن يشهر به فطيف على جمل « فأخذ الناس يلطمون وجهه ، ويهزون لحيته ، حتى رأى فى نفسه العبر » .

وسار العزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة . فأحسن الخليفة إليهم ، وأمنهم وكساهم ، وأسند إليهم الأعمال التى كانو يلونها أيام أفتكين . أما أفتكين فقد خرج جنود الفاطميين لاستقباله ، ولم يشك أحد فى أنه مقتول لامحالة .

وهنا ظهرت صفات العزيز النادرة ، وحبه للعفو عند المقدرة مع رجل دوخ الفاطميين وكاد يقضى على دولتهم وهى فى عنفوان قوتها وكامل فتوتها. على أنه كان لجوهر أثر كبير فى ذلك العفو بالرغم مما أنزله أفتكين به وبجنده ، فطالما عمل على تلطيف مزاج مولاه العزيز وتهدئة نفسه الثائرة

ضد ذلك العدو الذى أقلق باله وعكر صفو حياته وجعل دولته قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

ويحدثنا ابن القلانسى أن أفتكين لما دخل على العزيز فى سرادقه ترجل عن دابته وقبل الأرض بين يديه وحمل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتكين . إزاء الحفاوة به وبرجاله ، إلا أن رمى بنفسه إلى الأرض وألقى ماعلى رأسه وبكى بكاءاً شديداً سمع الحاضرون نشيجه وقال : « مااستحققت الإبقاء على ، فضلا عن العفو الكريم والإحسان الجسيم ... » وامتنع من الجلوس فى الدست وقعد بين يدى العزيز . وقد ألبسه جوهر على إثر وصوله من ملابس العزيز وهدأ روعه . فجدد الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهراً على ما أظهره نحوه من كرم ونبل .

وقد بالغ العزيز فى إكرام أفتكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وعطاياه ، وظل أفتكين متمتعا بنعم العزيز حتى مات فى سنة ٣٧٢ هـ . وقد اتهم يعقوب بن كلس وزير العزيز بقتله بالسم لترفع أفتكين عنه ، فأمر به العزيز فحبسه مدة حنقا منه عليه ثم أطلقه .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين فى سورية ، فأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، حيث استقل محمود نور الدين بن زنكى بدمشق واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءا من أملاك الدولة الأيوبية .

تقـــدير جوهر

إلى هنا انتهى بنا البحث فى حياة جوهر ، ذلك الكاتب الكبير والقائد المحنك والسياسى الخطير . وقد اختلف علماء الاجتماع فى عظماء الرجال وذهبوا فيهم مذاهب شتى . فمنهم من يرى أن الرجل العظيم هو الذى يخلق الظروف ويرغم الحوادث على السير طوع إرادته ، ويضطرها إلى المضى فى الطريق الذى يشقه لها ، ومنهم من يرى أن الرجل العظيم هو ابن الساعة ووليد الظروف ، تخلقه الأيام وتنشئه الحوادث وتهيء له من الفرص مالا تهيء لغيره وتخلع عليه من مظاهر العظمة ما تضن به على سواه .

وقد اجتمع فى جوهر الرأيان جميعاً . فإننا لو نظرنا نظرة إجمالية إلى حياة هذا القائد ، رأينا أن عناصر عظمته هى مزيج من الحظ المؤاتى والكفاءة الشخصية النادرة .

ولا غرو فقد كان لجوهر من المواهب ، التى طالما أملت إرادتها على الأيام وفرضت رأيها على الحوادث ، ما يجعل منه قائداً موفقاً وسياسياً حكيماً . إلا أن هذا وحده لا يكفى . لو لم تتح له الظروف الاتصال بالمعز وهو لا يزال ببلاد المغرب ، فيوليه ثقته ويوليه إمرة جنده وقيادة جيشه لإتمام فتح ما بقى من بلاد المغرب وإخضاعها لسلطان الفاطميين . وهنا تظهر مواهبه النادرة وقوة شكيمته . فقد أخضع بلاد المغرب كلها لسلطان المعز فى أقل من سنة . وهكذا تكاتفت ظروف الرجل ومواهبه فى وضع الحجر الأساسى لمجده .

ولم تقف ثقة المعز بجوهر عند هذا الحد ، فقد جعله على رأس الحملة التى وجهها لفتح مصر ونشر الدعوة الشيعية بالمشرق ، بعد أن فشل فى ذلك من سبقه من القواد الفاطميين . على أن حظ جوهر فى مصر لم يكن أقل منه فى بلاد المغرب . فقد سادتها الفوضى وعم فيها الاضطراب عقب وفاة كافور . وبلغت الدولة العباسية درجة كبيرة من الضعف والانحلال عجزت معها عن إرسال الجنود لصد الأعداء عنها كما فعلت من قبل .

وعلى الرغم من وقوف المعز على حقيقة الحال فى مصر وما كانت عليه من ضعف ، فقد رأى أن فتحها يحتاج إلى عقل راجح وقيادة حكيمة . فاختار جوهراً بعد أن خبره كاتباً ووزيراً وقائداً تفتح له البلدان المنيعة فى بلاد المغرب أبوابها . وكان جوهر عند ظن الخليفة به ، فتم على يده فتح مصر واتخذها الفاطميون قاعدة لخلافتهم . وكان لمهارة جوهر وحسن سياسته أثر كبير فى استتباب الأمن وتأليف قلوب الأهلين بالرغم من بغضهم المذهب الشيعى ، مذهب الفاطميين .

وقد نفذ جوهر السياسة الفاطمية التى كانت ترمى إلى اتخاذ مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء . وكان اختيار المعز جوهراً لتنفيذ تلك السياسة اختياراً موفقاً . فإن سلطة الفاطميين لم تتوطد فى بلاد الشام وفلسطين حتى خرج إليهم جوهر بنفسه بعد أن أخفق فى ذلك جعفر بن فلاح ، وانفض الناس من حوله ، وتخاذل عنه الجند وخر صريعاً فى ميدان القتال ، لما كان يعوزه من الحزم وبعد النظر وحسن السياسة ، تلك الصفات التى امتاز بها جوهر .

وقد ساعد الحظ جوهرا ، فقضى على القرامطة وردهم عن مصر مهزومين مدحورين ، وطالما تاقوا للإغارة عليها وفتحها كما أغاروا على غيرها من بلدان المشرق . ولولا قوة جوهر ومهارته الحربية لتم للقرامطة ما أرادوا وأزالوا سلطان الفاطميين فى مصر ، ولما تثبت دعائمه فيها .

لا زالت آثار جوهر فى مصر تنطق بأيادى القائد العظيم والفاتح الكبير فهو منشىء القاهرة ، تلك العاصمة التى لم تلبث أن بذت غيرها من العواصم الإسلامية ، وأصبحت منار الحضارة الإسلامية التى انبسط نورها على الآفاق ، فقد فاقت القاهرة بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقرطبة حاضرة الأمويين فى الأندلس ، وأصبحت مركز العلوم والفنون والآداب ، وكعبة العلماء ، ومحط رحال الشعراء والكتاب . ناهيك ماذكره ناصرى خسرو ، ذلك الرحالة الفارسى الذى طاف جميع البلدان الشرقية وشاهد بنفسه ماوصلت إليه

من المدينة والحضارة ووقف على ما بلغته من العلم والفن ، فقد قال فى كتابه : « سفر نامه » إن القاهرة قد سبقت فى عهد الفاطميين هذه البلاد جميعا فى كل ناحية من نواحى الحياة .

ومما يدل على حنكة جوهر وعلو كعبه فى السياسة ، أنه لم يلجأ إلى وسائل الشدة والعنف فى نشر المذهب الفاطمى وإنما لجأ إلى الوسائل السلمية . فاعتمد على المساجد التى اتخذها أشبه بمدارس يتلقى فيها الأهالى تعاليم هذا المذهب ، دون أن يفرض على أحد اعتناقه . فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً لتدريس تعاليم المذهب الفاطمى حتى لا يضايق المصريين السنيين فى شعورهم الدينى فى المساجد الأخرى . وعلى الرغم من دراسة هذا المذهب فيما عدا الأزهر من المساجد ، فإن التاريخ لم يذكر لنا أن الناس كانوا يساقون لتلقى تعاليم هذا المذهب كرهاً . بيد أن هذا التسامح لم يصرف جوهراً عن الغرض الأول من سياسة الفاطميين ، وهو تعميم هذا المذهب بين المصريين . فقد لجأ فى جذبهم إليه إلى الوسائل المادية ، وذلك بإسناد مناصب الدولة الهامة إلى معتنق هذا المذهب مصريين كانوا أو مغاربة .

وكان جوهر أحسن مثل للحاكم العادل ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه ، فيقضى بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدى المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ، ولو كانوا من خاصته وخلصائه . فقد ضرب على أيدى الجند المغاربة ومنعهم من التعدى على الأهالين ، حتى كان يعاقب المعتدين منهم بالقتل جزاء لهم وردعا لغيرهم . فكان مثله فى ذلك مثل عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد وصلاح الدين الأيوبى وغيرهم من خيرة الأمراء وكبار الساسة الذين تولوا الحكم فى مصر فى العصر الإسلامى .

ولا شك أن جوهراً يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية فى مصر خاصة والشرق عامة . وكان مولاه المعز يثق به ثقة لاحد لها . فقد ترك له ولاية

مصر أربع سنوات لم يفكر خلالها فى الحضور إليها وتسلم مقاليد الحكم فيها حتى ألح عليه جوهر فى ذلك، مما يدل على أن المعز كان يرى فى جوهر الجدارة بالاضطلاع بحكم مصر وإدارة شئونها .

على أن نفوذ جوهر لم يلبث أن تضاءل أثر قدوم المعز إلى مصر ، فأفل نجمه ودالت دولته وهذا أمر طبيعى : فقد عرف المصريون جوهراً وأحبوه ودانوا له بالطاعة وأصبح ذا شخصية بارزة ونفوذ قوى . فلو أشركه معه المعز فى حكم هذه البلاد لسقطت هيبة الخليفة الفاطمى وتلاشى سلطانه . لذلك لا نعجب إذا صرف جوهر عن الأعمال العامة عقب وصول المعز ، فلم يعد إلى الظهور إلا فى فتوح سورية فى عهد العزيز حين اشتد خطر القرامطة وأفتكين، وكان ذلك فى آخر عهد جوهر بأعمال الدولة . فإنه بعد أن وطد سلطان الفاطميين فى سورية وعاد إلى مصر سنة ٣٦٨ ه ، أهمله العزيز كما أهمله المعز من قبل ، فلزم داره وأصبح نسيا منسيا .

وقد أحفظ جوهراً إهمال المعز والعزيز له ونال من نفسه عدم تقديرهما ما كان له من الأيادى فى توطيد سلطان الفاطميين . فقد ذكر المقريزى(١) أن منجوتكين(٢) التركى خرج من قصر العزيز سنة ٣٨١ وهو ممتط جواده ، وفى حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة مشاة . وكانت يد جوهر فى يد ابن عمار . فتنهد ابن عمار وزفر زفرة كاد ينشق

---

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٩

(٢) حدث جوهر أبا عمار أنه لما وصل المعز إلى مصر عرض عليه الأسرى . وكان من بينهم منجوتكين هذا ، وكان لا يزال غلاماً . فلما رآه المعز نظر اليه وتأمله ، فلما انتهى جوهر من عرض الأسرى قال المعز « يا مولانا ! قد فعلت لما رأيت هذا التركى ما لم تفعله مع من تقدمه » . فقال « يا جوهر ! سوف ترى أن يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتم على يده فتوحات عظيمة » . ثم قال جوهر لابن عمار : « وأنا أظن أن ذاك الغلام هو الذى كان يعنيه مولانا المعز »

لها صدره وقال : « لاحول ولا قوة إلا بالله ! » فنزع جوهر يده منه وقال : « قد كنت عندى يا أبا عمار أثبت من هذا . . . لكل زمان دولة ورجال . أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجل لى ، ولا نا المعز لما سرت إلى مصر أولاده وإخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ، فتعجب الناس من ذلك . وها أنا اليوم أمشى راجلا بين يدى منجوتكين . أعزونا وأعزوا بنا غيرنا . وبعد هذا أقول اللهم قرب أجلى وموتى ، فقد أنفت على الثمانين » .

وفى تلك السنة اعتل جوهر فعاده العزيز بالله ، وأرسل إليه خمسة آلاف دينار ، ثم بعث إليه الأمير منصور بن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى .

وتوفى جوهر فى يوم الاثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ . فبعث إليه بالحنوط والكفن الخليفة العزيز وابنه المنصور أبو على ، الذى ولى الخلافة بعد أبيه وتلقب بالحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ) . وكفن جوهر فى سبعين ثوبا مابين مثقل وموشى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن بالقرافة الكبرى ، على ما ذهب إليه ابن إياس[1] . وخلع العزيز على ابنه الحسين

---

(١) جـ ١ ص ٥١

انفرد ابن إياس بذكر الموضع الذى دفن فيه جوهر . فلم يذكر لنا ذلك غيره من المؤرخين كابن الزيات فى كتابه « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » ، والسخاوى فى كتابه « تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات » ، وهما من أهم المصادر التى يمكن الرجوع إليها فى معرفة الأماكن التى دفن بها مشاهير رجال التاريخ وكذلك المقريزى الذى عنى باستقصاء كل مايتعلق بالفاطميين وأبو المحاسن والسيوطى وغيرهم من مؤرخى مصر الإسلامية .

أما المقبرة التى كانت بالجهة الشمالية للأزهر إلى وقت قريب ، والتى يزعم بعض الناس أن جوهراً الصقلى دفن فيها ، فهى مقبرة جوهر القنقبائى من أمراء المماليك ، وإليه تنسب مدرسة الجوهرية (الخطط التوفيقية : جـ ٤ ص ٢٠ نقلا عن الضوء اللامع للسخاوى)

ابن جوهر وجعله فى رتبة أبيه ، ولقبه بالقائد بن القائد ، ومكنه من جميع ما خلفه أبوه . ولم يزل محل عطف العزيز ورعايته حتى ولى الحاكم بأمر الله، فقلده البريد والإنشاء سنة ٣٨٦هـ (سنة ٩٩٠) ورد إليه النظر فى امور الرعية وتدبير امور الدولة(١) .

هكذا انتهت حياة جوهر، ذلك الكاتب العظيم والقائد المحنك والسياسى الماهر . فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة . ولقد كان جوهر عاقلا عادلا ، محسنا إلى النـاس . لهذا لا نعجب إذا حزنوا لوفاته . فرثاه الشعراء على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم حتى لم يبق بمصر شاعر إلا رثاه وشاد بأدبه الجم ، وعلمه الغزير ، وشخصيته الكبيرة ، وصفاته العـالية ، ومواهبه النادرة .

فرحم الله جوهراً فإن مثله فى الرجال قليل .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤ — ١٥ .

الباب السادس

دولة الفاطميين

التي أقامها جوهر الصقلي في مصر

(١) خلفاء العصر الفاطمي الأول (٣٦٢ — ٤٨٧ هـ):

ظل جوهر الصقلي يحكم بنفسه منذ أن تم له فتحها عام ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) فاستأثر بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ وأخذ يعمل منذ تقلده زمام الخلافة على تنمية موارد الثروة واهتم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في مصر وغيرها من البلاد وأنشأ اسطولا عظيما لم ير مثله، ومات بعد وصوله إلى مصر بقليل.

وولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) وهو في الثانية والعشرين في عمره وكان قد قدم مع أبيه إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ وعهد إليه أبوه بالخلافة. وما كاد العزيز يوطد سلطته في مصر حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين اللتين كانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين. وتم له ما أراد وتوطد سلطان الفاطميين في سورية وأصبحت تلك البلاد ولاية فاطمية، حاضرتها دمشق، وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية.

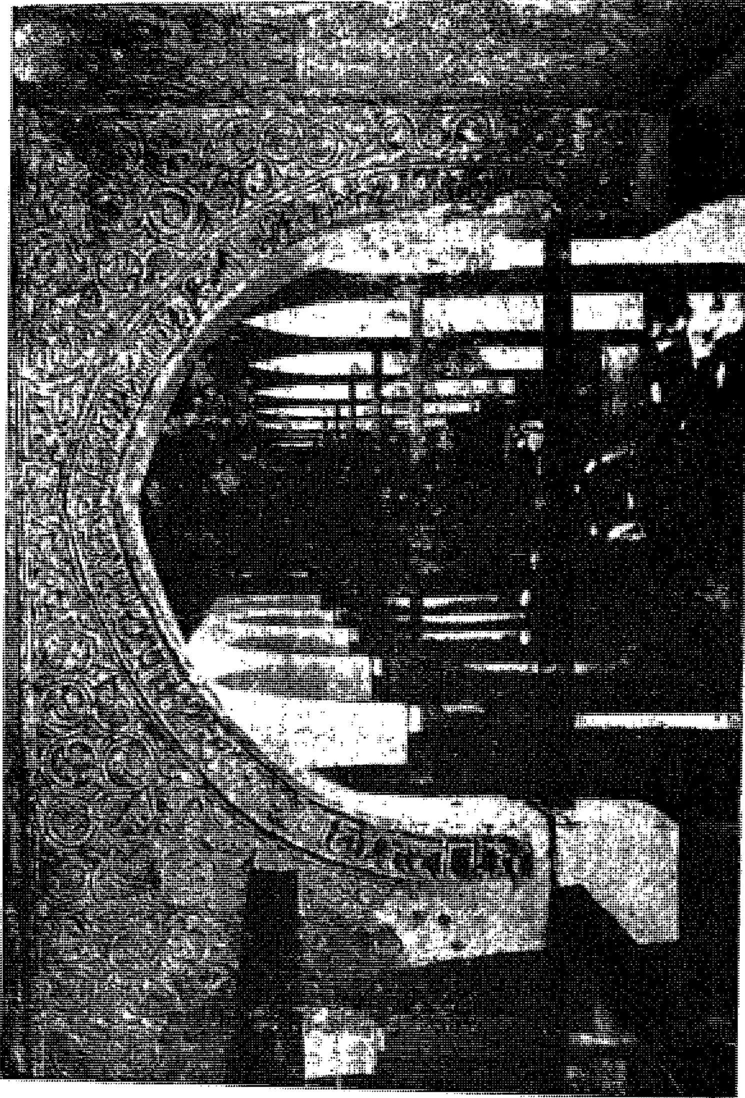
ووجه الفاطميون في عهد العزيز بالله اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعي، وأصبحت كل أمور الدولة في أيدي الشيعيين أو بعبارة أخرى في أيدي المغاربة أنصار الفاطميين، ويرجع السبب في ذلك إلى أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى إضعاف نفوذ السنيين تدريجاً.

وبنى العزيز كثيراً فى المنشئات التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده
القصر الغربى وكان يقع غربى القصر الشرقى الذى بناه جوهر للخليفة ا
شرقى مدينة القاهرة فى المكان الذى يقع فيه الآن خان الخليلى ومسجد الحـ
تقريباً . وكان القصر الغربى الذى بناه العزيز أصغر من القصر الشرقى ، و
أطلق عليه القصر الغربى الصغير تمييزاً له عن قصر المعز وكان يقع مكان سـ
النحاسين وجامع قلاوون تقريباً . وبين القصرين ميدان فسيح لعرض ا
أطلق عليه اسم « بين القصرين » .

وابتنى العزيز قصوراً أخرى فى عين شمس كما بنى فى عهده قصر البحر الذ
يقول ابن خلكان أنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب واهتم
المساجد كمسجد الحاكم الذى أسسه سنة ٣٧٠ هـ ومات قبل أن يتمه فأتمه ا
الحاكم ونسبه إليه . وأقام العزيز فى جامع عمرو منبراً كان آية من آيات الفـ
كذلك أثثه أثاثاً فخماً وزينه بالستور الحريرية المزركشة بالذهب وكا
كلها من رسم ولون واحد .

وكان الخليفة العزيز أول من حوّل الأزهر إلى جامعة وجعلها تحـ
إشراف وزيره يعقوب بن كلس ونقل إليها الكثير من الكتب والمصاحـ
وأجرى على الأساتذة العطايا والصلات فكان يخلع النفيسة فى الأعـ
ويحملهم على البغال اعترافاً بما لمركزهم العلمى من أهمية وتقدير . وسرعان
التحق بالجامعة الأزهرية مشاهير العلماء فى الفقه الإسلامى واللغة والنـ
والمنطق والرياضة والطب وغيرها .

ومن أظهر صفات العزيز ميله إلى الأبهة وخبرته بالجواهر والغرام بالصـ
وخاصة صيد السباع ، كما كان ذكياً أديباً مستنيراً ، يجيد عدة لغات ، كريماً
محباً للعفو ، يعطف على النصارى واليهود . ومرض العزيز فى بلبيس فى شـ
رجب سنة ٣٧٦ هـ وكان فى طريقه إلى الشام . ولما اشتدت عليه وطـ
المرض ، عهد إلى ابنه المنصور الذى تلقب بعده بالحاكم بأمر الله . ودفـ



بعض عقود الجامع الأزهر — وهي من عهد إنشائه

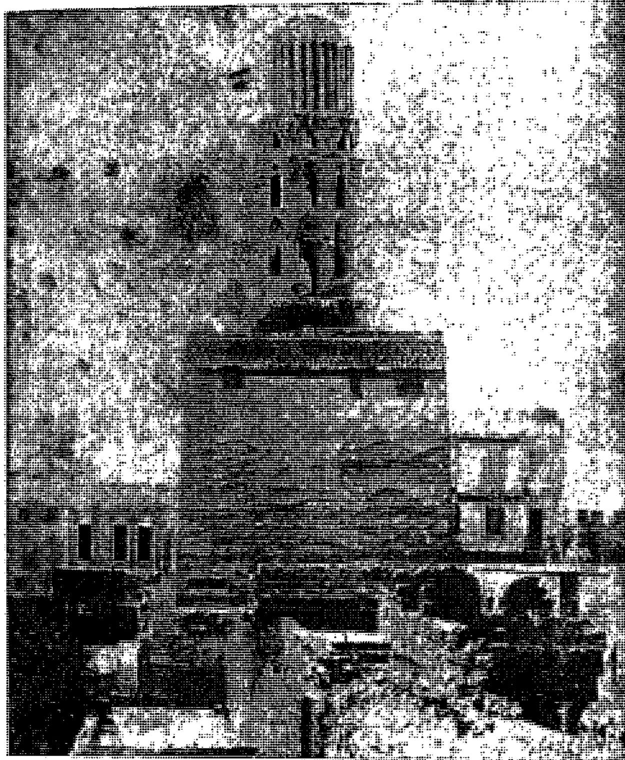
العزيز مع أبيه المعز فى إحدى حجرات القصر الشرقى الكبير وله من العمر ثلاث وأربعين سنة .

* * *

ولى الحاكم الخلافة (٣٧٦ — ٤١١ هـ) بعد وفاة أبيه وكان إذ ذاك حدثاً فى الحادية عشرة من عمره فقام بأمر تربيته مربيه برجوان . وحياة الحاكم متناقضة متضاربة حتى أطلق عليه بعض المؤرخين صفات مختلفة وسماه الأستاذ مرجوليوث Margoliouth « الحاكم المجنون » The Mad Hakem ، وقال عنه المقريزى « إنه كان يعتريه جفاف فى دماغه ولذلك كثر تناقضه وكانت أفعاله لا تعلل وأحلامه وسياسته لا تؤول » . من ذلك أنه أصدر سنة ٣٩٥هـ مرسوماً يحرم بيع الملوخية لأنه أثر عن معاوية أنه كان يحبها ، ونهى عن استعمال الجرجير لأن عائشة كانت تأكله ، ونهى أيضاً عن استعمال القرع وطلب إلى الفلاحين أن يعطوه وثائق كتابية بعدم زرع الملوخية والقرع والجرجير لأن أبى بكر وعائشة ومعاوية كانوا يحبون أكلها ثم نهى عن بيع الفقاع وهو نوع من الخمر وشدد فى ذلك لأن علياً كان يكرهها . وقد أساءت هذه الأوامر إلى السنيين الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من المصريين .

وادعى الحاكم تجسم الإله فى شخصه ونسب إليه أنصاره بعض الصفات التى لا يتصف بها إلا الله حتى اعتقد البعض أن بيده الحياة والموت ، فكان إذا بدا للناس فى الطرقات سجدوا له !

وذكر المؤرخ ابن زولاق أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يندسسن فى دور بعض الناس لكشف مايحدث فى هذه الدور وتقديم تقارير عن ذلك فى اليوم التالى إلى الخليفة الذى كان يستدعى هؤلاء ويخبرهم بما حدث فى بيوتهم . وكان نتيجة هذا أن أصبح بعض الناس يعتقدون انه يعلم بالغيب .



منارة جامع الحاكم

وظهر تناقض الحاكم جليا : حين حرم على الناس الخروج ليلا من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر ومنع النساء من الخروج ومن الظهور غير متنقبات وألا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس فى حالة منافية للآداب والحشمة وحرم عليهن الظهور فى أعلى المنازل ودخول الحمامات العامة ومنع صانعى الأحذية من أن يعملوا أحذية خاصة بهن ، وظل النساء فى بيوتهن سبع سنين حتى ولى ابنه الظاهر .

ولكن رغم ذلك فإن الحاكم قد قام ببعض أعمال نافعة ، من ذلك أنه أتم بناء جامع الحاكم الذى بدأه أبوه العزيز وزاد فى بناء الجامع الأزهر . ومات الحاكم سنة ٤١١هـ مقتولا وقيل إن أخته ست الملك كان لها يد فى قتله.

* * *

وجاء بعده ابنه الظاهر (٤١١ — ٤٢٧هـ) وتمتع المصريون فى عهده بالسلام والطمأنينة بعد عهد الاضطهاد والفوضى اللذين اتصف بهما عهد أبيه الحاكم وكان الظاهر رجلا عاقلا عادلا حليما دمث الأخلاق فقد ألغى القوانين التى كان قد أصدرها أبوه .

* * *

وجاء بعد الظاهر ابنه المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧هـ) وقد حكم مصر والبلاد التابعة لها ستين سنة ،وظهرت مصر فى أوائل عهده بمظهر القوة والعظمة. وفى عهده زار مصر ناصرى خسرو الشاعر الفارسى فوصلها فى صفر سنة ٤٣٩ هـ وأقام فيها إلى ذى الحجة سنة ٤٤١هـ، وكانت مصر حين زارها هذا الرحالة فى عصر المستنصر فى بحبوحة من العيش وكان الخليفة محبوباً من الشعب ولم يكن أحد يخشى سلبا أو نهبا وكان تجار الجواهر والصيارف لا يحفلون بإغلاق حوانيتهم .

ولكن بعد ذلك عاودت مصر المصائب وقد خفف من وقعها الوزير اليازورى الذى قبض على زمام الأمور تسع سنوات وعالج خطر المجاعة بوضع يده على مخازن الغلال ، وبعد وفاة هذا الوزير عادت الفوضى إلى مصر . وكانت السلطة إذ ذاك بيد الجنود التركية فانتهزوا تلك الفرصة ونهبوا المدينة وأصبح بيت المال خلوا من المال المطلوب لإرضاء هؤلاء الجنود فلجأوا إلى القوة للحصول على أرزاقهم المتأخرة . وفى سبيل ذلك أتلفوا قصور الخلفاء الجميلة وبددوا المجموعات الفنية التى لا تقوم ، والأحجار الكريمة والمجوهرات ، وأغاروا على المكاتب المنقطعة النظير .

وقد شل الحركة الزراعية والتجارية فى الديار المصرية ، ذلك الرعب الذى ألقته الجنود السودانية المنبثة فى جميع أنحاء البلاد . ولم يكن هناك مايخفف وطأة انخفاض النيل أو مايساعد على زراعة الأراضى للفصل الجديد فشعرت مدينة القاهرة ومدينة الفسطاط بندرة الأقوات شعوراً قاسياً ، وبدا ماعرف فى تاريخ الفاطميين باسم «الشدة العظمى» وفيها بلغ ثمن الرغيف ١٥ دينارا وكانت المنازل تباع بربع من الدقيق وعرضت الجواهر الثمينة نظير شىء من الطعام فلم يوجد من يشتريها وبيعت الخيل والحمير والكلاب والقطط بأثمان عالية ثم ندر وجودها وقلت دواب اسطبل الخليفة وأصبح الناس يخطفون بعضهم بعضاً وبيع لحم الإنسان عند الجزارين وأجرت بنت أحد الفقهاء رغيفين على الخليفة كل يوم حتى رؤى المستنصر نفسه فى إحدى حجراته جالسا على حصير بالية لابسا قبقابا .

وانتهت أيام الشدة العظمى بموت ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجنود التركية ، وتوفى خلال سنة ٤٦٥هـ ، وتقلد بدر الجمالى الوزارة . وكان أرمنى الأصل ، يعرف فيه المستنصر الهمة والبسالة وحسن الإدارة ، فاستنجد به الخليفة ليقضى على العناصر التركية المتنافرة فجاء إلى القاهرة وقبض على هذه العناصر بيد من حديد ووضع حداً للفوضى والجرائم وأعاد عهد سيطرة القانون ثم

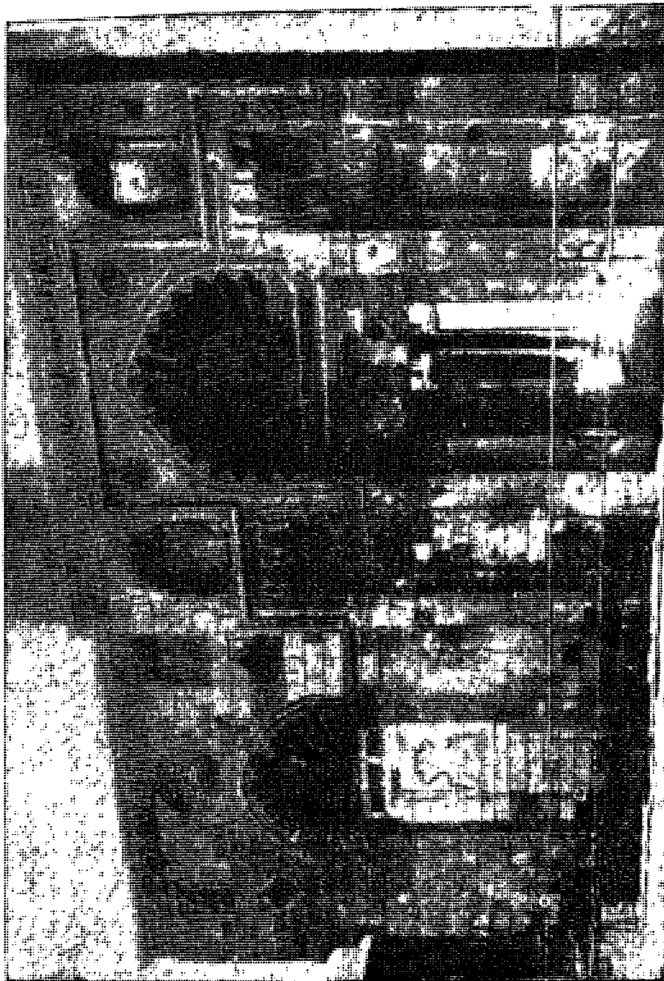
تفرغ لإصلاح ما أفسده الأتراك : فحصن المدينة بأن أحاطها بالسور الذى يعرف باسم سور بدر الجمالى وأصلح أبواب القاهرة وبنى جامع الجيوشى وتلقب باسم أمير الجيوش . ومات المستنصر وبدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ ، أى فى سنة واحدة .

٢ — خلفاء العصر الفاطمى الثانى (٤٨٧ — ٥٦٧ هـ) :

بعد المستنصر ، جاء الخليفة المستعلى (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ) ، ولم يقع فى أيامه ما يستحق الذكر ، ولم يكن له من الأمر شىء كثير أو قليل ، لأن السلطة والنفوذ فى عهد خلفاء العصر الفاطمى الثانى أصبحتا فى يد الوزراء ، وصارت تلك الظاهرة قاعدة الحكم ، منذ أن بدأت وزارة الجمالى : فكان المستعلى مع وزيره الأفضل بن بدر الجمالى ، مسلوب السلطة ، كما كان المستنصر مع أبيه بدر .

وبعد المستعلى جاء الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) . وقبض على ناصية الحكم فى عهده الوزير الأفضل بن بدر الجمالى وتمكن الآمر من بناء قصر الهودج فى جزيرة الروضة لزوجته البدوية ، ومن إنشاء جامع الأقمر . وتوفى عام ٥٢٤ هـ وخلفه الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) الذى كان هو والخليفة الآمر مسلوبى السلطة فى عهد ذلك الوزير وفى عهد ابنه أبى على بن الأفضل .

وبذلك فإنه فى ذلك العهد الأخير من أيام الفاطميين ، أصبح الوزير رب السيف والقلم بمعنى أن كل أمور الدولة قد آلت إليه فضعف نفوذ الخلفاء ضعفاً واضحاً بحيث أصبحوا طوال ذلك العهد تقريباً تحت نفوذ الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم . ولا شك أن الخلفاء قد شعروا بشىء كثير من المضايقة لسلب السلطة منهم . وبعد مقتل الوزير الأفضل فى عهد الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) تولى الوزارة أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى فمنع الخليفة من النظر فى أمور الدولة ، ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ، ثم استولى على ما فى القصور من التحف ومنع ذكر اسم الخليفة فى



جامع الأقمر — الذي بناه الخليفة الآمر الفاطمي

الخطبة وذكر اسمه بدلا منه وتلقب بألقاب منها : ناصر إمام الحق ، وهـادى القضاة إلى اتباع شرع الحق ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتي السيف والقلم . وفى هذا منتهى الدلالة على مبلغ سطوة الوزراء وضعف الخلفاء .

وولى بعد الحافظ الظافر (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ) ثم الخليفة الفائز (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ) ثم جاء بعدهما العاضـــد (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) وهو آخر الخلفاء الفاطميين . وكانت مصر فى عهد هؤلاء الخلفاء الثلاثة فى عهد انحلال ، انتهى بسقوط هذه الدولة .

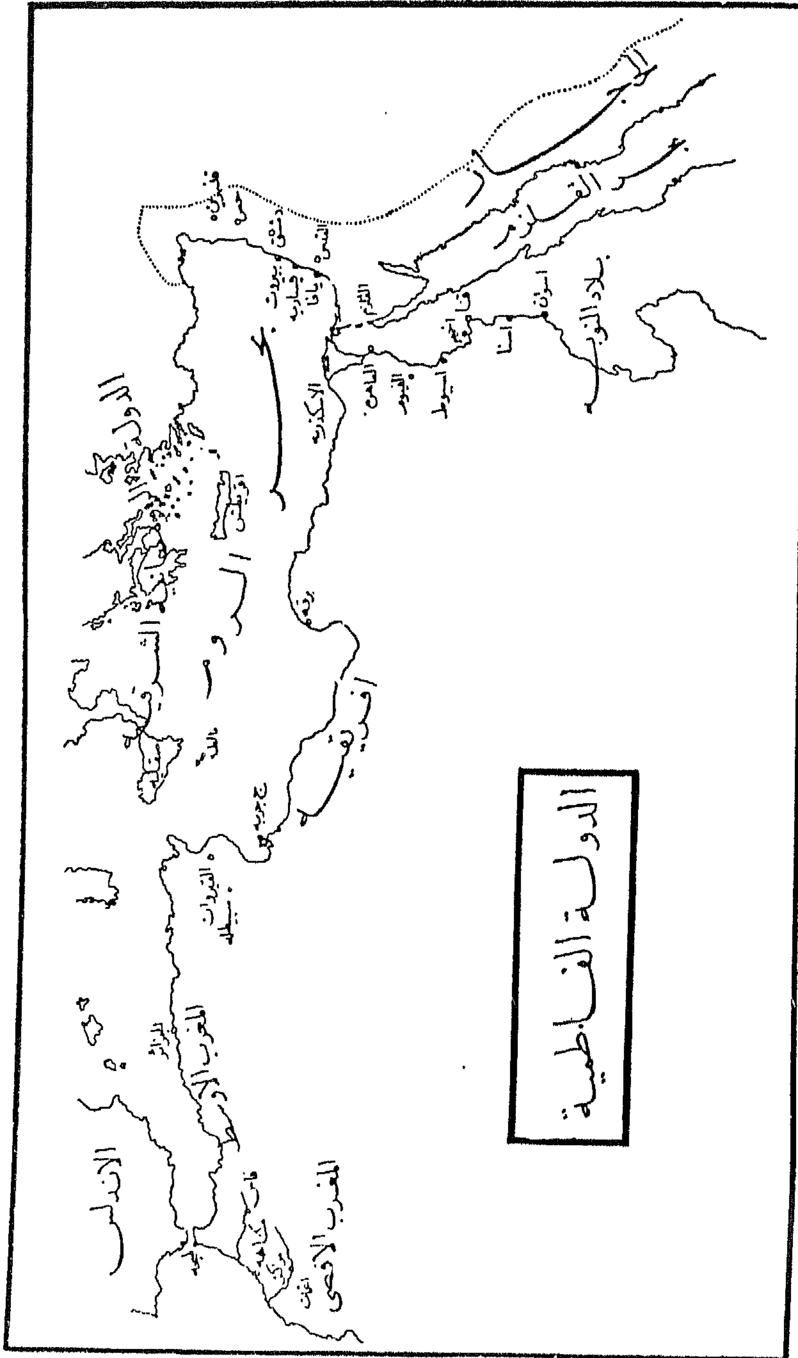
٣ — تقلص سلطان الفاطميين :

يجب على من يريد معرفة كيف خرجت الأقطار التى أصبحت تحت سيطرة الفاطميين عن سلطانهم ، أن يتتبع كيف تأسست الدولة الفاطمية فى المغرب وكيف امتدت بعد ذلك إلى الشرق وتحولت إلى إمبراطورية :

١ — استولى أبو عبد الله الشيعى داعى دعاة الفاطميين على إفريقية وكانت تشمل المنطقة المعروفة اليوم باسم تونس . ثم مد عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين نفوذه على بلاد المغرب حتى مدينة فاس فى مراكش ، كما اعترف بسلطانه حاكم صقلية ، وبعث عبيد الله المهدى حملتين لغزو مصر ، وكان من المحتمل أن يستولى عليهـا لولا قيام أهالى بلاد المغرب بالثورات فى وجهه طوال مدة حكمه .

٢ — وفى عهد المعز ، انتشر سلطان الفاطميين على شمال إفريقية ، بفضل مهارة جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى . وفى سنة ٣٥٨ هـ فتح جوهر مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، ثم فتح بعض جهات سورية ، ودعا أمير مكة للمعز الفاطمى على منابر بلاده .

٣ — وفى عهد العزيز الفاطمى ، امتد نفوذ الفاطميين على جزيرة صقلية


الدولة الفاطمية
بحر الروم
الأندلس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
افريقية
بلاد النوبة
الإسكندرية

فى البحر الأبيض المتوسط ، وانضمت جميع بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين بفضل ما أظهره الخليفة العزيز والقائد جوهر من المهارة الحربية .

٤ — وفى الشطر الأول من خلافة المستنصر ، اعترف الصليحى الشيعى الذى أخضع بلاد اليمن والحجاز من حضرموت إلى مكة بسلطان المستنصر فى اليمن حول سنة ٤٥٥ هـ . وفى عهد المستنصر أقيمت الخطبة على منابر بغداد نحوا من سنة على يد البساسيرى .

هذا هو مدى امتداد الإمبراطورية الفاطمية فى عهد الخلفاء الفاطميين . ولكن منذ عهد الخليفة الظاهر الفاطمى الذى اعتلى الخلافة منذ عام ٤١١ هـ ، بدأت الدولة الفاطمية فى الانكماش .

١ — فى بلاد الشام : خرج صالح بن مرداس الكلابى على الخليفة الظاهر واتجه إلى حلب وظل يحاصرها إلى أن استطاع أخيراً الاستيلاء عليها ، وكذلك تغلب ابن المفرج البدوى صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام ، وكان لذلك أثره فى اضمحلال نفوذ الفاطميين فى هذه البلاد .

٢ — وفى الحجاز : فقد حدث فى عهد الظاهر أيضاً ، أن أحد الحجاج المصريين ضرب وجه الحجر الأسود ثلاث ضربات متواليات ، وقال : إلى متى يعبد الحجر ا ولا محمد ولا علىّ يقدران على منعى عما أفعله ، إنى أريد هدم هذا البيت . فلما علم بذلك المكيون ثاروا على المصريين وقتلوا جماعة منهم ونهبوا ما معهم من الأموال ، وكان من أثر ذلك أن ساءت العلاقة بين المصريين والحجازيين ، وظلت الفتنة مشتعلة بين الفريقين إلى أن استطاع أحد القواد المصريين ويعرف بأبى الفتوح حسن إخمادها .

٣ — وفى غزنة شمال غرب الهند : كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة قد عظم أمره ، فكتب إليه الظاهر كتابا يدعوه فيه إلى طاعته وأرسل إليه الخلع . ولكن ابن سبكتكين لم يعبأ بالخليفة الظاهر .

ولم يكد يتولى الخلافة فى مصر ، الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، الذى تولى الخلافة عام ٤٢٧ هـ ، حتى تقاصت الإمبراطورية الفاطمية وانكمشت إلى أضيق حدودها :

١ — فثار أهل إفريقية (٤٤٣ هـ) ضد الحكم الفاطمى وأظهروا استياءهم من عقائد المذهب الشيعى واعترفوا بسلطان العباسيين ، ثم تكونت فى بلاد المغرب دول إسلامية مستقلة .

٢ — استقل روجر النرمندى بصقلية ، بعد أن استولى عليها من الفاطميين (٤٠٣ هـ) . ورحل عنها العلماء العرب وخضع أهلها لسلطان الفرنجة .

٣ — قطعت الخطبة للمستنصر فى بلاد اليمن ، على أثر وفاة الصليحى أمير اليمن ، الذى كان قد أقام الخطبة للفاطميين .

٤ — قطع كل من أمير مكة والمدينة الخطبة للمستنصر (٤٦٢ هـ) على أثر انقطاع الأموال التى كانت ترد إليهما من مصر ، بسبب ما أصاب البلاد المصرية من الأوبئة والمجاعات التى مزقت شملها كل ممزق ، وخطبا للخليفة القائم بأمر الله العباسى .

٥ — تمكنت جيوش العباسيين التى أرسلها ملكشاه السلجوقى إلى الشام من فتح الرملة وبيت المقدس ثم من فتح دمشق (٤٦٧ هـ) وقطع الخطبة عن المستنصر وإحلال الخليفة العباسى فى الخطبة مكانه .

٦ — لم يستمر إشراف الخليفة العباسى على شمال إفريقية ، بعد ثورة أهالى تلك الجهات ضد حكم الفاطميين واعترافهم بسلطان العباسيين ، فإن الفرنجة بعد استيلائهم على جزيرة صقلية تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل إفريقية الشمالى ، فاستولوا على مدينـــة المهدية العاصمة الأولى للدولة الفاطمية ببلاد

المغرب ، وظل الفرنجة بها إلى أن أجلاهم عنها الموحدون تحت قيادة زعيمهم عبد المؤمن بن على الذى استطاع (٥٤٠ هـ) أن يحشد جيشاً كبيراً غزا به بلاد شمال إفريقية فاستولى على مراكش والجزائر ثم على تونس ، وتابع الزحف شرقا حتى حدود مصر الغربية وضم إلى سيطرته طرابلس وبرقة . وبذلك تم لعبد المؤمن زعيم الموحدين ببلاد المغرب الاستيلاء على جميع أملاك الدولة الفاطمية فى شمالى إفريقية .

٧ — استقل نور الدين محمود بن زنكى بحلب ودمشق ، ثم احتل الصليبيون المدن الساحلية فى فلسطين وسوريا . وما لبثت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية أن أصبحت محل النزاع بين نور الدين محمود والصليبيين عقب اشتداد النزاع على كرسى الوزارة فى العصر الفاطمى الثانى ، وظهرت الجيوش النورية والصليبية على أرض مصر . وكان من أثر الحملات النورية على مصر بقيادة شيركوه ، أن أسندت الوزارة فى مصر فى عصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين إلى شيركوه . وبوفاة شيركوه بعد شهرين من وصوله إلى الوزارة ، أسندت الوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى أعاد إلى الأذهان سيرة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ومحمد الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ، إذ استطاع صلاح الدين تأسيس الدولة الأيوبية التى استقلت بمصر مع التبعية الإسمية للخلافة العباسية . ولم تعد مصر بذلك مقر خلافة بل أصبحت دار سلطنة .

٤ — سقوط الفاطميين :

ويرجع سقوط الفاطميين إلى أسباب عدة ، من أهمها : أن الخلفاء الفاطميين لما تركوا البساطة التى كانت تمتاز بها حياتهم الأولى أيام حكمهم فى شمال إفريقية انغمسوا فى الترف والبذخ فى قصورهم الجميلة فى القاهرة وجعلوا إدارة دولتهم فى يد مواليهم من البربر . فكان من أثر هذه السياسة أن اغتصب

الوزراء تدريجاً نفوذ الخلفاء حتى أصبحوا يلقبون بلقب ملك بينما كان سادتهم الخلفاء منزوين فى قصورهم . وبعد أن كان نفوذ الفاطميين يشمل فى الشطر الأول من حكمهم شمال إفريقية والشام وجزيرة رودس وذكرت اسماء الخلفاء الفاطميين فى الخطبة فى الجوامع ما بين المحيط الأطلسى والبحر الأحمر وفى اليمن والحجاز والموصل .

رغم هذا ، فإن قوة الفاطميين ابتدأت فى الانحلال وذهبت أسعد ساعات الخلافة الفاطمية ، بسبب تهاون كبار رجال الدولة فى اختيار الخلفاء الأكفاء ومبايعة الأطفال بالخلافة ليسهل على الوزراء والحجاب الانفراد بالسلطة . لذلك فإنه فى سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالى شمال إفريقية عقائد المذهب الشيعى رفضا نهائيا . وانتهى الاعتراف بالخلافة الفاطمية فى بلاد العرب سنة ٤٧٣هـ، وكان العهد المظلم الذى أعقب وفاة الوزير اليازورى قبل ذلك . كذلك قامت الحروب المنصرية بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين وإن كان تقلد بدر الجمالى للوزارة قد وضع حداً لمدة قصيرة لهذا الاستبداد العسكرى .

وإن البحث الدقيق فى أسباب سقوط الدولة الفاطمية يدلنا على أن السبب الاساسى يرجع غالباً إلى الحروب الصليبية . فإن تلك الحروب قد عجلت بزوال دولتهم الفتية لأن اشتباك الفاطميين مع الصليبيين فى الشام وعدم قدرتهم على الوقوف أمامهم والحيلولة دون امتلاكهم لبيت المقدس ، قد أوقف نور الدين صاحب دمشق والصليبيين على ضعف الخلافة الفاطمية فتوجهت أنظارهم لامتلاك هذه البلاد وأخذ كل منهما يعمل على امتلاكها .

وقد ظهرت إذ ذاك عظمة صلاح الدين ، الذى كان نور الدين محمود صاحب حلب ودمشق قد أرسله إلى مصر مع عمه اسد الدين شيركوه على رأس جيش لقتال الصليبيين وطردهم من مصر . ولما تم له ذلك عين صلاح الدين وزيرا بعد وفاة أسد الدين شيركوه وخصص جهوده كلها لطرد الصليبيين من بقية البلاد

التى فتحوها . ثم عمل صلاح الدين على تثبيت مركزه فى مصر فتمكن بحسن سياسته أن يكتسب ثقة الأهلين ، فأسند مهام الدولة إلى أنصاره وظل يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة العاضد الفاطمى حتى جعله سجين قصره، فأثار ذلك سخط أهل القصر وأتباع الخلافة وجنده من السودان ودبروا المؤامرات للقضاء عليه . ولكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة وأمر بمراقبة زعيمها ، وتمكن من القبض عليه وقتله كما قتل كثيراً من السودانيين . فثار خمسون ألفا للأخذ بثأر ذلك الزعيم وكان يسمى نجاح واشتبكوا مع جند صلاح الدين فى المكان المعروف باسم « بين القصرين » وأحرق فى هذه الموقعة كثير من المنازل والشوارع ، ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين ففروا إلى الجيزة ومنها ذهبوا إلى الصعيد ، واستمروا فى ثورتهم إلى أن قضى عليهم نهائيا فى سنة ٥٧٢ ه .

ولما توطدت أقدام صلاح الدين فى مصر، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة ، وبعد أن تم له النصر عليهم طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه فلبى طلبه . وكان من أثر انتصار صلاح الدين على الفرنجة فى دمياط ، أن تعلق به المصريون على اختلاف نحلهم من شيعيين وسنيين ، فاتفقوا معه على محاربة أعدائهم من الفرنجة .

كذلك استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين من حسن التفاهم بينه وبين المصريين حتى استطاع أن يسند المناصب الدينية فى مصر إلى الفقهاء المتضلعين فى المذهب السنى ، بل لقد جرى فى سياسته إلى أبعد من ذلك وهو التمهيد لقطع الخطبة للخليفة الفاطمى . وانضوى تحت لواء صلاح الدين كل رجالات الدولة وسقطت إلى الحضيض سلطة الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، كما استطاع صلاح الدين أن يقمع العناصر التى لم يثق بها فى جيشه. ومن الطبيعى أن يرغب نور الدين وهو من غلاة السنة فى إحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمى وهو عمل ينطوى تحته إزالة الدولة الفاطمية .

وقد علم صلاح الدين برغبة نور الدين ، ولكنه تردد فى تنفيذ هذه الرغبة لأنه خاف أن يثير هذا العمل أهالى مصر . ولكن نور الدين تشدد فى الطلب .

وكان الخليفة العاضد مريضا فى ذلك الوقت ، فعقد صلاح الدين مجلسا من الأمراء واستشارهم فى مسألة ذكر اسم الخليفة العباسى بدل اسم الخليفة الفاطمى فوافقه بعضهم ، واخذوا على عاتقهم تعضيده ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . وكان فى هذا المجلس رجل فارسى اسمه الأمير اعتزم أن يتولى بنفسه هذا الأمر وصعد فى يوم الجمعة إلى المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسى المستضىء فلم يحتج أحد على ذلك وأمر صلاح الدين فى الجمعة التالية بإقامة الخطبة للخليفة العباسى .

وهكذا تم ذلك التغيير من غير أن يلق مقاومة ، ولم يخبر الخليفة العاضد بذلك . وكان مريضاً ، وقال أعضاء أسرته « إن عوفى فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى ان نفجعه بهذه الحادثة قبل موته » .

وتوفى الخليفة العاضد فى ١٠ محرم سنة ٥٦٧ هـ من دون أن يعلم بهذا التغيير ، فجلس صلاح الدين للعزاء واستولى على القصر ومافيه من كنوز وطرائف وأسكن أولاد العاضد وأعمامه فى جناح منه .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد بعد أن حكمت مصر عصراطويلا (٣٥٨ هـ — ٥٦٧ هـ) وكان عصرها عصر يسر ورخاء وتسامح وتدين وثقافة ، وذلك لم تتمتع به مصر من قبل . وإن زوال الخلافة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين الغلاة وإرجاع الخطبة للخليفة العباسى بعد أن قطعت الخطابة له فى مصر وفى سائر الولايات الفاطمية الأخرى أكثر فى قرنين . إن هذا كله يمكن تسميته : انتصار السنة على الشيعة .

تقدير الفاطميين :

مهما قيل فى الدولة الفاطمية ، فإن الباحث فى تاريخ هذه الدولة ، لايسعه إلا أن يذكر ما أدته لمصر من جليل الخدمات وما خلفته من الآثار الباقية على الزمن ، تشهد بعصرها بالقوة والعظمة ولخلفائها الأول بالنفوذ والسلطان.

١ — انتقل الفاطميون إلى مصر ، فأصبحت مصر مقر خلافة لأول مرة فى تاريخها ، بعد أن كانت مقر إمارة يحكمها ولاة .

٢ — تمتعت مصر الفاطمية، بجميع مظاهر الاستقلال ، وصارت مستقلة استقلالا تاما .

٣ — امتدت دولة الفاطميين من المغرب ومصر ، إلى الشام والحجاز، على حساب العباسيين ، واعترف بسلطان الفاطميين فى شمال إفريقية ، ومصر ، والشام ، وآسيا الصغرى ، وبسطوا نفوذهم على سواحل البحر الأحمر ، وعلى اليمن ، والموصل ، وبلاد ماوراء النهر ، ومكة ، والمدينة ، بل وخطب لهم على منابر بغداد عاصمة العباسيين .

٤ — بنى الفاطميون مدينة القاهرة عاصمة مصر الحالية .

٥ — نشط الفاطميون فى بناء المساجد لنشر الدعوة الفاطمية : فبنوا الجامع الأزهر الذى حوله الخليفة العزيز إلى جامعة تعرف باسم الجامعة الأزهرية .

٦ — أسس الفاطميون دور الكتب لتشجيع البحوث فى العقائد الإسماعيلية فأسسوا مكتبة القصر ودار الحكمة ودار العلم .

٧ — ازدهرت التجارة فى عصر الفاطميين ، إذ اتصلوا ببلاد الهند والصين وبجنوبى أوربا ، كما كان للفاطميين شهرة عالمية فى صناعة المنسوجات وصناعة المعادن وصناعة التماثيل والنقش على الخشب .

مصر الإسلامية بعد سقوط الفاطميين :

تأسست على أثر سقوط الفاطميين ، دولة الأيوبيين ، وكان مؤسسها صلاح الدين الأيوبى من أبرز شخصيات العالم الإسلامى . وتميز عهد الأيوبيين بالعمل الدائم فى القضاء على الصليبيين ، ولكن عجل سقوط الأيوبيين قيام النزاع على عرش السلطنة مما أدى فى النهاية إلى سقوط الدولة الأيوبية التى حكمت مصر على نسق الدولتين الطولونية والإخشيدية . فقد كانت تحكم إسمياً من بغداد مقر الخلافة العباسية، ولعب مؤسسها صلاح الدين نفس الدور الذى لعبه ابن طولون والإخشيد . واعتبرت مصر منذ قيام الدولة الأيوبية، سلطنة يحكمها سلاطين بعد أن كانت دار إمارة ثم دار خلافة .

ويبدأ تاريخ دولة المماليك فى مصر عقب سقوط الأيوبيين . وفى عهدها تمتعت مصر بكافة مظاهر الاستقلال ، وزال عهد التبعية الفعلية والإسمية عن عن مصر ، وأعادت إلى الأذهان عهد الفاطميين ، وأن حكام المماليك لقبوا بلقب سلاطين وليس بلقب خلفاء كالخلفاء الفاطميين. وصارت مصر فى عهدهم مركز الخلافة بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد ، وصارت مصر يحكمها فى عهد المماليك : سلطان له الإشراف السياسى على شئون الدولة ، وخليفة له الإشراف الدينى ومنه يستمد سلطان المماليك سلطته الشرعية .

فترات حكم الدول التى حكمت مصر الإسلامية :

أولا : فترات كان يربط مصر بالخلافة ، الخطبة والجزية والسكة .

١ — عهد تبعية مصر للخلفاء الراشدين ٢٠ — ٤٠ هـ = ٦٤٠ — ٦٦١ م .

٢ — عهد تبعية مصر للخلفاء الأمويين ٤٠ — ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٥٠ م .

٣ — عهد تبعية مصر للخلفاء العباسيين ١٣٢ — ٢٥٤ هـ = ٧٥٠ — ٨٦٨ م و ٢٩٢ — ٣٢٣ هـ = ٩٠٥ — ٩٤٣ م .

ثانياً : فترات كانت مصر مستقلة فى الحكم ، مع التبعية لغيرها فى الإسم فقط :

١ — زمن الطولونيين ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م .

٢ — زمن الإخشيديين ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ = ٩٣٧ — ٩٦٩ م .

٣ — زمن الأيوبيين ٥٦٧ — ٦٤٨ هـ = ١١٧١ — ١٢٥٠ م .

ثالثاً : فترات كانت فيها مصر مستقلة استقلالا تاماً :

١ — زمن الفاطميين ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ = ٩٦٩ — ١١٧١ م .

٢ — زمن المماليك ٦٤٨ — ٩٢٣ هـ = ١٢٥٠ — ١٥١٧ م .

مصادر الكتاب[1]

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا : مصادر عربية مخطوطة

ابن حجر العسقلانى (٨٥٣ هـ = ١٤٤٠ م) شهاب الدين بن على .
« رفع الإصر[2] عن قضاة مصر » .
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥) .
العينى : (٨٨٥ هـ = ١٤٥١ م) بدر الدر الدين محمود.
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ٢٤ جزءاً فى ٦٠ مجلداً .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٤ تاريخ .
العمرى : (٧٤٢ هـ = ١٤٤١ م) ابن فضل الله .
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٧ .
أبو المحاسن : (٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) جمال الدين سيف بن تغرى بردى .
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الجزء الرابع .
مخطوط بدار بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٣ .
المقريزى : (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على .
« كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك » الجزء الثالث .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية .

---

(١) السنوات المثبتة أمام اسم كل مؤلف ، هى سنة وفاته مبينة بالهجرى والميلادى .

(٢) الإصر : الذنب .

النويرى[1] : (٧٣٢ = ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ٣٢ جزءا .
صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٠ معارف عامة ، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .

ثانيا : مصادر عربية مطبوعة

أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م)
الإدريسى[2] : (٦٤٩ هـ = ١١٨٨ م) .
« كتاب نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان » .
ابن الأثير : (٦٣٠ هـ = ١٢٣٧ م) على بن أحمد بن أبى الكرم .
الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءا (بولاق سنة ٢٩٤ هـ)
ابن الإخوة : « معالم القربة فى أحكام الحسبة » (طبعة روبين ليفى Rubien Levy بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial) .
ابن إياس : (٩٣٠ = ١٥٢٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد .
« كتاب تاريخ مصر » المعروف باسم « بدائع الزهور » ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ هـ) .
ابن بطوطة : (٧٧٩ هـ = ١٣٨٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد .
« تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » جزءان (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) ترجمة إلى الفرنسية ديفريميرى Defremery وسانجنيتى Sanguinetti (باريس ١٣٥٣ — ١٣٥٨ هـ = ١٨٦٩ — ١٨٧٩ م) .

(١) اشترك النويرى فى حروب المماليك اشتراكا فعليا ، ووصف كثيرا من وقائعهم ، ويمتاز كتابه بالوثائق التى يثبت بها وجهة نظره فيما أدلى به من آراء .
(٢) جاءت شهرة الإدريسى لا عن طريق تأليفه هذا الكتاب ، بل لرسمه خريطة العالم فى العصر الذى عاش فيه .

البكرى[1] : (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) .
« كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » .
البيرونى[2] : (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) .
« الآثار الباقية عن القرون الخالية » .
ابن تيمية : «الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية » جزء واحد
ابن جبير : (٦١٤ هـ = ١٢٨٧ م)
« رحلة ابن جبير » (طبع فى ليدن سنة ١٨٥٢ م) .
جورجى زيدان : « تاريخ التمدن الإسلامى » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢)
حسن إبراهيم حسن : « عمرو بن العاص » (القاهرة ١٩٢٣ م) .
« الفاطميون فى مصر » عن الإنجليزية (المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م) .
« تاريخ الإسلام السياسى » — ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٤٦) .
« انتشار الإسلام بين المغول » (بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية ، مايو سنة ١٩٣٣) .
« عبيد الله المهدى » (القاهرة ١٩٤٧)
« المعز لدين الله » (القاهرة ١٩٤٧)
ابن خلدون : (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) . عبد الرحمن محمد .
« مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٩٠٠ م) .
«العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزا (القاهرة ١٢٨٤ م) .
ابن خلكان : (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) . شمس الدين أبو العباس أحمد

---

(١) ينسب البكرى لأبى بكر الصديق ، وبكتابه معلومات جليلة الشأن عن شمال إفريقية وسكانها .

(٢) البيرونى من سكان بيرون Berun أحد أحياء جنوة ، وكان يطلق على الحى والبلدة اسم خوارزم .

ابن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى .
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » جزءان .
(بولاق ١٢٨٣ هـ ، والمطبعة اليمنية بمصر ١٢١٠ هـ) .
ابن دقماق : (٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) إبراهيم بن محمد المصرى .
« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » جزء ٤ ، ٥ القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ = ١٨٠٣ م) نشره المستشرق فولرز Ed. Vollers
راشد البرواى : الحالة الاقتصادية فى عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨) .
رشيد الدين فضل الله : (١٣١٨ هـ) « كتاب جامع التواريخ » ترجمه إلى الفرنسية مسيو إتيين كترمير E Quatremére . وانتهى رشيد الدين من تأليفه سنة ٧٠١ هـ (١٠٣١ م) .
زكى محمد حسن :
« الفن الإسلامى فى مصر » (القاهرة ١٩٣٥ م) .
« مصر والحضارة الإسلامية » الرسالة الخامسة عشر من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الحربية .
« الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٤٥) .
ابن زولاق : (٣٧٨ هـ = ٩٩٧م) .
« العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج »[1]
السبكى : (٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب .
« معيد النعم ومبيد النقم » . (لندن سنة ١٩٠٨) طبعة داود ولهم موهرمن David W Myhrman المدرس بكلية أبسلة الملوكانية .
« طبقات الشافعية الكبرى » جـ ٥ ، ٦ (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

---

(١) هو عبارة عن سيرة محمد بن طغج الإخشيد ، لكنه أمدنا فى الوقت نفسه بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى سنة ٣٨٦ هـ .

سعيد بن البطريق[1] : (٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م) .

« التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » .

السيوطى : (٩١١ هـ = ١٦٠٥م) . جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد

« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » (القاهرة سنة ١٨٨١ م)

ترجمه إلى الإنجليزية الميجر هـ . س . جورت (كلكتا سنة ١٨٨١ م)

« تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » . إدارة المطبعة المنيرية سنة ١٣٥١ هـ .

ابن شاكر : (٧٦٤ هـ = ١٣٦٣م فخر الدين محمد بن أحمد الكتبى

« فوات الوفيات » (بولاق ١٢٩٩ م)

أبو شامة : (٦٦٥هـ = ١٢٦٧ — ١٢٥٨ م) . عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة شافعى من أهل دمشق .

« كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين »

Recueil des Historiens Croisades. Historiens Orientaux. t. VI.

وهناك طبعة أخرى فى مجلدين (القاهرة ١٢٧٨ م) .

أبو صالح الأرمنى : (٦٠٥هـ = ١٢٠٨م) .

« تاريخ أبى صالح الأرمنى » المعروف باسم « كنائس وأديرة مصر »[2] طبعة Evetts فى أكسفورد سنة ١٨٩٥ م ، وقرن نصه العربى بترجمة إنجليزية .

---

(١) كان سعيد بن البطريق معروفا باسم أوتيخا Eutychus عند الافرنج وكان بطريقا للقبط ، وكتب كثيرا عن تاريخ مصر ، وأمدنا بمعلومات تعتبر أصلية ، إلا أن لغته يعيبها الركاكة وأتم كتابه رجل من أنطاكية يدعى يحيى بن سعيد المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) .

(٢) فيه يكتب المؤلف تاريخ الكنائس والأديرة المصرية وأحياء النصارى وتاريخ القديسين والبطاركة ، وبعض أعمال الدولة الأيوبية وإقطاعاتها وخراجها .

ابن طباطبا : ولد سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م وأتم كتابه سنة ٧٠١ هـ ،(ولا تعرف سنة وفاته) . محمد بن على المعروف باسم الطقطقى .
«الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » القاهرة ١٩١٣ م)
ابن عبد الحكم[1] : (٢٨٦ هـ) : « كتاب فتوح مصر والمغرب » .
عبد الرحمن زكى : « القاهرة » (١٩٤٣) .
عبد اللطيف البغدادى : (٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م) « مختصر تاريخ مصر » .
على ابراهيم حسن :
« جوهر الصقلى » (القاهرة ١٩٦٣ م) .
« النظم الإسلامية » ، بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن (القاهرة ١٩٦٢ م) .
« دراسات فى تاريخ المماليك البحرية » (القاهرة ١٩٦٣)
« استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ الإسلامى والتاريخ المصرى الوسيط » (القاهرة ١٩٦٣)
« التاريخ الاسلامى العام » (القاهرة ١٩٦٣)
« الجيش والبحرية فى عصر المماليك »
الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزراة الحربية ، (القاهرة ، مارس ١٩٤٤)
« آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية » .
(بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، ١٩٤٤) .
« أخطر المجاعات فى مصر » و« عظمة الفاطميين » (بحثان فى مجلة الكتاب عددا يونيه وديسمبر ١٩٤٦) .
« دراسات مصادر التاريخ الإسلامى وحياة مؤلفيها »
بحث بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد — العدد الأول — حزيران ١٩٥٩

---

(١) كان ابن عبد الحكم معاصراً لأحمد بن طولون، ومات بعده بست سنوات وكتابه من أقدم الكتب التى كتبت عن تاريخ مصر الإسلامية .

على مبارك : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة » ٣٠ جزءاً فى أربع مجلدات (بولاق ١٣٠٥ هـ).

عمارة اليمنى [١] (٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م)

« كتاب النكت المصرية فى اخبار الوزراء المصرية » .

« ديوان عمارة اليمنى » .

العمرى : (٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) شهاب الدين احمد بن فضل الله .

« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » الجزء الأول .

نشره وعلق عليه المرحوم الأستاذ أحمد زكى ، (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) .

« التعريف بالمصطلح الشريف » (القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ) .

عمر طوسون : « كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » (الاسكندرية سنة ١٩٤١)

ابن أبى الفضائل ، مفضل : « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » .

« Texte Arabe Pnbliée et traduit en Francais par E. Blochet. Palaogia Orientalis. t. Fasc. 3 Paris, III, 1930

ابن القلانسى : (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) : أبو على حمزة .

« ذيل تاريخ دمشق » (بيروت سنة ١٩٠٨ م)

القلقشندى [٢] : (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) ابو العباس احمد .

« صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٧ م) .

« ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » (القاهرة ١٠٩٦ م) .

---

(١) تنحصر أهمية عمارة فى معاصرته للحوادث التى جرت لمصر فى أواخر أيام الفاطميين ، فكان كشاهد عيان لهذه الحوادث .

(٢) ولد سنة ٨٥٦ هـ ببلدة قلقشندة من أعمال مديرية القليوبية .

الكندى (١) : (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .
« كتاب الولاة والقضاة » به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلانى ، طبعة رفن جست .
E. J. Y. Gibb Memorial Series, XIX. 1912, R. Guest

الماوردى : (٤٥٠ هـ = ١٥٠٧م) أبو الحسن بن محمد بن حبيب المصرى
« الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨م)

أبو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٨٩٦م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ١٠ أجزاء
(مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٠ — ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٠ — ١٩٤٠م)
والجزء الخامس : الفصل الأول والفصل الثانى (جزءان) — طبع جامعة كليفورنيا بإشراف William Popper

محمد محمود عرنوس . «تاريخ القضاء فى الإسلام » ، القاهرة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٤ م

المقريزى (٢) ٨٤٥ هـ = ١٤٤١م ، تقى الدين أحمد بن على
« المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان ، بولاق ١٢٧٠ هـ .
نشر مسيو جاستون فيت جانباً من الجزء الأول ، طبعة بولاق ، فى أربعة مجلدات فى المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية فى القاهرة ، (القاهرة ١٩١١ — ١٩٤٢ م)

---

(١) كان الكندى مصرى المولد والدار ، ولما توفى سنة ٣٥٠هـ أتم كتابه ابن زولاق المصرى الجنس المتوفى سنة ٣٨٧ هـ فى خلافة الحاكم بأمر الله ووصل فى كتابته إلى سنة ٣٨٦ هـ أى قبل وفاته بسنة، وأتى بعدهما ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣هـ (١٣٤٩ م)، وأتم كتاب القضاة وسماه « رفع الإصر عن قضاة مصر »، ونشرت هذه الكتب الثلاث كلها مع بعض .

(٢) ولد تقى الدين المقريزى فى القاهرة سنة ٧٦٦هـ ويكنى جده لأبيه المقريزى نسبة إلى مقريز من خطط بعلبك بسورية .

« كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » الجزء الأول ، الجزء الثانى إلى سنة ٧٤١ هـ . نشرها وعلق عليها الدكتور محمد مصطفى زيادة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ويناير ١٩٤٢)

« كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة » نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠) (طبعة الجمعية الزراعية ـ القاهرة ١٩٤٣ م) .

ابن منجب الصيرفى (٥٤٢ هـ) : « الإشارة إلى من نال الوزارة »(١) .

ابن ميسر : (٦٧٧ هـ = ١٢٧٥ م) .

« تاريخ مصر » طبعة هنرى ماسيه . (القاهرة ١٩١٩) .

ياقوت : (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الرومى .

« معجم البلدان » ١٢ جزءا . (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

* * *

ثالثاً — مصادر أوربية

Allan : (j.)
The Cambridge Shorter History of India. (Camdridge, 1924).

Arnold : (T. W.)
The Caliphate. (Oxford, 1924).

Aitya (A. S.)
The Crusade in the Later Middle Ages (London, 1938.)
Egypt anp Aragon. (Leipzig, 1938.).
Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1330 A. D.

---

(١) لكتابه قيمة خاصة فى بحث تاريخ الفاطميين، لأن ابن تقلد ديوان الرسائل فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى من سنة ٤٣٥ هـ حتى ٣٥٦ هـ ، كما كان متصلا بالبلاط الملكى اتصالا مباشراً .

Blochet (E)
Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). Extrait de la Revue de l'Orient Latin. Tomes VIII—XI)
Browne, (E. G.)
Literay History of Persia from the Earliest times until Firdawsi. (London, 1909).
Literary History of Persia under Tartar Dominion. (1265-1502 A.B) Vol. II. (Cambridge, 1920).
Literary History of Persia. Vol. III. the Tartar Dominion 1265—1502. (Cambridge, 1923).
Budge (.A. W.)
A History of Ethiopia. Nubia and Abbysinia-2 Vols. Bulletin of the School of Oriental Studies (B. SC. G.).
(Cam. Med. Hist.) Cambridge Mediaeval History (Vol. IV).
Christensen. (A).
L'Empire des Sassanides. (Copenhague, 1907. Memoires de l'Academie Royale des Sciences et des Lettrs— Denmark).
Colin. (G. S.) et E. Levi-provencal.
Un Manuel Hispanique de Hisba (paris, 1931).
Demombynes. (G)
La Syrie a l'Epoque des Mamelouks. (paris, 1922.)
De Sacy : (S).
Bibliothéques Arabissant Francais (Le Caire) 1933. (Mem. I. F A. Caire)
D' Hosson (Baroun).
Histoire des Mongols dequis Techinguiz Khan jusqu' a Timour Bey ou Temerlan, vol. III.
Dozy (R).
Supplément anx Dictionnaire dètalle des Noms de Vêtements Chez les Arabes (Parie,1845).
(Enc. Isl.) Encylopaedia of Islam.
Devonshire (R. L.)
Rambles in Cairo, 1931.
Hassan H. I.
Relations between Egypt and the Caliphate (Cairo, 1940)
Hautecoeur (L.) et Wiet (G).
Les Mosquées du Caire. 2. vols. (Le Caire, 1923).
Heyd : (W.)
Hisioire du Commerce au Moyen-Age. Vol. II. (Leipzig. 1925).
Hitti : (P. R.)
The History of the Arabs. (London, 1940).

(J. A) Joural Asiatique.
Howorlh (Sir Heury)
History of the Mongols Part III. vol IV. (London, 1876-1888).
Kendrick. (A. F.)
Catalogue of Muhammadan Textiles of the Medieval Period. (Victoria and Albert Museum)
Lane—Poole, (S.)
The Art of the Saracens (London, 1888).
The Story of Cairo. (London, 1982)
History of Egvpt in the Middle Ages (London 1900)
The Muhammadan Dynasties (Paris 1905)
Lavoix (H.)
Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bebliotheque Nationale, Egypt et Syrie.
Le Strange (G.)
Palestine under the Moslems.
Marcel (M J. J.)
Histoire de L'Egypte depuis la Conquéte des Arabes Jusqu'a L'Expédition Francaise. (Paris, 1848)
Mayer (L.A)
Saracenic Heraldry « Oxford, 1933 »
Mercier
La Chasse et les Sports chez Les Arabes. « Paris, 1927 »
Michel «B»
L'Organisation Financiére de l'Egypt sous les Sultans Mamlouks d'aprés Qalqachandi. Le Caire, 1925.
« Extrait de bulletin de l'institut d'Egypte, T.VII. Session 1924—1925 ».
Muir « W.E. »
The Caliphate, its Rise, Decline and Fall « Oxford, 1902 ».
Quatremère «E».
Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte 2. vols. Paris, 1837—1844 »
Toussoun : « Omar »
La Géogrophie de l'Egypte a l'Epoque Arabe « Memoires tde la Société Royale de Geographie d'Egypte, t. VIII.1.2 parties- Le Caire 1926—1928 »
Sanhoury. « A. A. »
Le Califat « Paris, 1926 » .
Van Berchem « Max »
Materiaux pour un Corpus Iuscriptionum Arabicarum. « Le Caire, 1823 » Mem. I.F.A Caire.

Wiet : G.

Histoire de la Nation Egyptienne, L'Egypte Arabe, Paris, 1926.

Précis de l'Histoire d'Egypte. Le Caire 1933.

Les Biographies du Manhal Safi. Memoires Presentés à l'institut d'Egypte. Le Caire, 1932.

Trois Formules d'indépendence dans l'Egypte Medievale. ed. de la Revue du Caire, 1942.

Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, tome. II. Mem. de l'institut fr. d'archeologie ,1900.

كتب المؤلف

١ — النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة ١٩٦٢)

بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن مدير جامعة أسيوط السابق. يبحث فى نظام الخلافة ، والوزراة ، والكتابة ، والحجابة ، وسلطة الولاة ، ودواوين الحكومة ، والجيش ، والبحرية ، ومصارف بيت المال ، ونظام القضاء .

ترجمه مولاى عليم الله خان صاحب صديقى إلى اللغة الأوردية ، لغة ، بلاد الهند الرسمية ، ونشرته ندوة المصنفين فى دلهى .

٢ — نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب (الطبعة الثانية ١٩٦٣)

يبحث فى تاريخ النساء فى الدولة العربية ، والدولة العباسية ، ومصر الإسلامية الوسيطة ، ويتناول ملابس المرأة فى الإسلام .

٣ — سيرة القاهرة (الطبعة الثانية ١٩٥١)

بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن ، ترجم من الإنجليزية إلى العربية عن Lane - Poole : The Story of Cairo

٤ — جوهر الصقلى (الطبعة الثانية ١٩٦٣)

يبحث فى حياة جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمى ، والدور الذى قام به المعز فى تاريخ مصر

٥ — مصر فى العصور الوسطى (الطبعة الخامسة ١٩٦٣)

من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى

يبحث فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى . ويشمل عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فى مصر ، وعهود دول : الطولونيين ،

والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك. وذلك فيما يتعلق : بالتاريخ السياسى ، والعلاقات الخارجية ، ونظم الحكم ، والمنشآت ، والحالة الاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٦ — دراسات فى تاريخ المماليك البحرية (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)

يبحث فى مميزات الدولة ، وسلطنة المماليك قبل الناصر محمد وفى عهده ، وعهود أبنائه وحفدته ، والسياسة الخارجية ، ومبدأ الوراثة ، وألقاب السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطانى داخل القصر وفى المواكب ، ونظام الخلافة العباسية فى القاهرة ، ودواوين الحكومة المملوكية ، وكبار الموظفين الإداريين ، والجيش المملوكى ، والقضاء والمظالم والحسبة ، والحالة المالية والاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٧ — استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ الإسلامى والتاريخ المصرى الوسيط (الطبعة الثانية ١٩٦٣)

يبحث فى طرق البحث التاريخى ، ومصادر الآثار ، ودواوين الشعراء ، ومصادر الرحالة والجغرافيين ، والمخطوطات ، ومصادر الأقدمين المنشورة .

٨ — التاريخ الإسلامى العام (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)

يبحث فى تاريخ الجاهلية ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والعصر العباسى ، ونظام الحكم فى الجاهلية والدولة العربية والدولة العباسية .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى بالقاهرة